خالد جويلى

طقوس العزاء

قصص



إهـــــداء2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

طقوس العزاء

قصص

طقوس العزاء

خالد جويلي

طقوس العزاء

قصص

خالد جويلي

الطبعة الأولى

١٩٩٧

الجمع التصويري: فرح ت: ٢٨٠٠١٥٠

تصميم وتنفيذ الغلاف: وكالة خليل للإعلان ت: ٥٧٨٣٤٣٥

إهداء

إلى جماعة "جاليرى ٦٨" .. التى ألهبت فينا نشوة التمرد .. وغواية الخلق .. والفرح بالكتابة..

خالد جويلى

لم يكن ثمة داعٍ لذلك

(١)

لماذا أحس بذلك الفـــرح كله؟ يا لى من طفل... الأننى وجـدت ذلك المقـعـد... إن سـاقى لا تكادان تحـمـلانى. رأسى ملتهبـة جـداً وعـينـاى بلا شك. حـسناً... ثلاثة أيام من المرض والضـجـر. أستطيع أن أحـزر ذلك مـقـدمـاً. ولكن أنـا الملوم على كل حـال. لماذا خـرجـت فى ذلك اليـوم القـائظ؟ يا للغبـاء. لم يكن ثمة داع لذلك، لم تبدو هـذه الفتاة ضجرة جداً؟... سأتنازل لها عن مقعدى بالطبع... لست متعباً إلى هذا الحد... ولكنها تبدو صلفـة جـداً.. ومـغـرورة أيضـاً. تنبئ بذلك عينـاهـا. علّهـا تظن نفسـهـا أفـروديت... يا للحـمـقـاوات. وصـديقـتهـا أيضـاً. تبـدو مفـرطة السـذاجـة... إنهـا تضـحـك بلا توقف... وتثرثـر أيضـاً. يكفينى حمل الحقائب عنهما.

إنه يتفرسنى من خلف منظاره الأسود منذ أن جلست... يا له من جلف ضخم... هل يحلم بالاستيـلاء على مكانى... ربما كان يستفزنى فحسب... يا للأحمق. لن أبرح قبل نهاية الخط. بعض الهواء البارد يتسلل من النافـذة. لم أكن أدرى أن هناك

نافذة خلفى. المقعد الطولى يحجب ذلك تماماً بدأت فى قراءة اللافتات والإعلانات. يا لها من عادة سيئة. (لست أدرى كيف تعودت ذلك؟ المهم... أننى لما كنت فى السادسة أو الخامسة تقريباً كنت أسابق نفسى أو أتحدى شيئاً ما فى داخلى... كانت عيناى تلتهمان كل شىء... هكذا... هكذا... بلا توقف كان ذلك يشبع ميلاً مجنوناً فى نفسى... كما لو كنت دائماً أخشى أن أموت بعد لحظة).

(٢)

(كنا نجلس على النيل أنا وصديقى «ل». لست أدرى كم تكرر ذلك... كنت أشرح له بعض الأفكار ولنقل المفاهيم الاجتماعية الجديدة. كانت عيناه الواسعتان جداً تدفعاننى للاستمرار بلا توقف... كنت أنظر فى عينيه دون أن أقطع حديثى أبداً. كاد حلقى أن يجف... سكت لحظة. تحدث هو فى موضوع مغاير تماماً... يا للسخف. ثلاث ساعات من الشرح وعشرات الأمثلة والسـ... يا لك من مأفون وقح. نظرت فى عينيه ثانية. كانتا أكثر اتساعاً من ذى قبل. اتسع ثغره أيضاً بعدة ألفاظ بلهاء، لم أسمع منها شيئاً... تمنيت فى هذه اللحظة أن أفقأ كلتا عينيه دفعة واحدة. أحسست

بأصابعى تتململ فى جيبى... كانت الرغبة عنيفة جداً حتى أننى شعرت بنشوة لا توصف لأننى هزمتها).

(٣)

كانت الفتاتان تتحدثان تقريباً بلا توقف. بصوت خافت جداً اقترب الرجل الجلف جداً. صار قبالتى تماماً. كيف لم تزل الصديقتان فى مكانهما حتى الآن. كانت عيناى قد استقرتا عليهما فترة دون أن أفطن إلى ذلك. لا أحس بأى ميل إلى الخجل الآن. إنهما تثرثران جداً على ما يبدو. متخابثتان أيضاً... إن تفرسى فيهما قد أربكهما إلى حد ما. إنهما تتبادلان النظر إلى... لا شك أنهما تثرثران حولى... يبدو أنهما أكثر مرحاً... يا للضحك الذى لا يتوقف... الرجل الضخم يحجب عنى كل شىء الآن. إن قميصه مضمخ بأقذر عرق على الأرض... ذراعاه كذراعى قرد. يا للكارثة سيتكئ على مقعدى... إنه ينظر بتمعن يتحفز... يتحفز... آه إننى أحس بالغثيان.

(٤)

طلبت إحدى الفتاتين حقيبتها. ابتسمت. مضت... ابتعد

الرجل القرد خطوة. النسيم البارد عاود تسلله. منطقة تخلو من الإعلانات. خف الزحام إلى حد ما. اقتربت الفتاة قليلاً عاودها الغرور ثانية. إنها تنظر بخبث شديد. لا بد إنها تظننى أهيم بها حباً... يا للحمقاء.

(كان صديقى «س» ساذجاً وطيباً... خجولاً جداً. وذات ليلة كنا ثملين جداً قلت له ساخراً أنه أذكى إنسان فى العالم ولما كان شديد الثقة بى فقد صدق ذلك على الفور وصار شديد الهوس بنفسه ومغرماً جداً بإظهار مواهبه حتى سقط فريسة لعدة أمراض عصبية).

جلست الفتاة بجانبى. إنها تنظر إلىّ بخبث أشد. تبتسم. إنها تبدو كأفروديت حقيقية.. (نصحنى صديّقى «م» بأن أحب مؤكداً أن ذلك سيكون مفيداً جداً بل وناجحاً أحياناً وكان صديق آخر ينصحنى بالتجوال فى كافة أنحاء مصر ـ والعالم إن أمكن ـ ورؤية كل شىء كما هو..) الرجل القرد ما زال يتفرس فى... أيها الأبله. لن أبرح قبل نهاية الخط. (كانت تحدثنى تليفونياً قرابة ساعتين كل يوم زاعمة أنها تحبنى بجنون وتروى لى مئات السخافات الصغيرة أنها لم تزل ابنة اثنتى عشر ربيعاً وأنها.. لم... كانت تحسن الثرثرة جداً وفى النهاية اكتشفت أنها لم ترنى قط!).

(٥)

(كان صديقى «س» صموتاً جداً. وكنت أعرف أن سببْ ذلك هو فقدان الثقة المريع الذى يعانى منه واعتقاده الراسخ بأنه إذا ما تكلم سيخطئ حتماً وكان الجميع يدفعونه للانطلاق ويجذبونه إلى ذلك بشدة. وأخيراً انطلق. كان يتحدث عن كل شىء... يدقق... ويفسر ويحلل. وكان لإيمانه الشديد بصحة رأيه يجبرك دائماً على عدم السخرية منه وفى النهاية يودعنى بحرارة شديدة ويهبط إلى الشارع وأنفجر فى الضحك حتى لأكاد أن...) حسناً لقد ابتسمت فعلاً. لابد أن الجميع قد رأوا ذلك... المرآة دائماً هناك. أين أفروديت الخبيثة؟ ألم يعد لها وجود. لعلها ذهبت إلي جبال الأولمب. حسناً. لتبحث عن أدونيس آخر. الرجل القرد يعاود الاقتراب ثانية. حسناً. هلم لم يبق إلاك. آه... رأسى يلتهب بشدة. ظهرت اللافتات ثانية. يا للسخف. إنها تمضى بسرعة أكبر. ثلاثة أيام من المرض والضجر، إننى أحزر ذلك مقدماً. ليتنى كنت قد فقأت عينه حقاً... يا للغباء. عينى تلتهب أيضاً. لم يكن ثمة داع لذلك. الهواء البارد يعاود تسلله، الإعلانات تظهر ثانية. لم أعد أقوى على القراءة. ربما كنت أحلم. الغثيان أقبح شعور فى العالم كان صديقى «س»... آه لقد وصلت.

بعد ليلة من الأرق

متلاصقين جدا.. كنا على مقعد واحد.. ساقه اليسرى.. ساقى اليمنى، إحداهما كانت ساخنة والأخرى ترتجف قليلا.. وددت لو لم أنظر إليه أبدا.. كانت جيوش الذباب تداعب أنفى وعينى الحمراوين بعد ليلة من الأرق.. ولكنه هو الذى كان ينظر من آن لآخر. أردت أن أصفعه. كنا متلاصقين.. لم أكن أستطيع أن أمنع نفسى من شم رائحة عرقه الحار.. لماذا نحن متلاصقان؟ ربما لأننا أصدقاء..! لأنه لا يوجد سوى مقعد واحد..! أو لأننا..! إنه ينظر إلى ثانية.. إننى أيضا أنظر إليه. لابد أن أحدنا كان يقول شيئا فى سره: "ترى هل الآخر يعرف؟" لا شك أن أحدنا أقل ذكاء من الآخر،.. عينه اليسرى استقرت برهة طويلة، أحسست بملمسها على نصف وجهى الأيمن.. هه. لا يهم.

لم يعد ذراعى قادرا على تطويق خصر أمى، ربما لأنها أنجبت أكثر مما يجب، ولعله السن والترهل.. رغم وجود النافذة بجوارى لم يجد ذلك مع الذباب شيئا. كان يداعب كلينا بنفس الحب. لماذا لا يفر إلى هذا أو ذاك؟!! هل أقفز من

النافذة؟ ضجرت عيناى من تأمل السحب الممعنة فى البياض.
إنه ينظر إلى ثانية.. لا بد أن أحدنا كان يقول..! لعله لا توجد سحب على الإطلاق. نحن فى مايو، لا بد أننى مبلّل بالعرق، أخشى أن أقفز من النافذة ونظل متلاصقين أيضا, وددت لو أصفعه بقوة، عندما سألت أمى عن رأيها فى صديقى الجديد قالت إننى حر فيمن أختار، لكنى لن أحتفظ به طويلا لأنه ليس لى أصدقاء..!

إنه ينظر إلى بطريقة سخيفة ربما كان ذلك كل شىء.

لماذا يخفت صوت أبى كلما تقدم فى السن؟ لعله الشحم الذى يتكالب على صدره العريض. لقد انتفخت أوداجه باللحم رغم أن عينيه لم تزالا صغيرتين، وقد ذوت زرقتهما وتحولت إلى رمادية كئيبة،.. لم تصر تلك الذبابة بالذات على المكوث فوق رسغى تحك رأسها كمن يفكر فى شىء؟ .. أنه ينظر إلى ثانية، أنه يقول شيئا،.. لماذا تبقى رائحة ثدى أمه فى فمه إلى ذلك السن؟ ربما كان يسأل عن الزمن،.. إنه ينظر إلى ثانية.. ترى هل يعرف الآخر؟ لماذا ينفث فى وجهى رائحة الأثداء العفنة؟ الذباب فى غاية البرود، أود أن أبصق عليه، أصفعه بشدة.. ما يزال ينظر إلى.. ترى هل يعرف الآخرين؟ هه.. شىء سخيف.

فى السابعة صباحاً

عندما تفاجأ به.. محاطاً بنوع من التصميم التافه على المكيدة.. نابشاً فى منغصّاتك بإصرار صبيانىّ على إيذاء ما.. تتذكر صبياً يتألم من سقطة مباغتة.. يضرب الأرض بقدميه.. يصفع الجدران ليتخفّف من الألم.. تعرف كم هو بائس.. متورّط فى معركة منهكة كان يجاهد لتجنبها طول الوقت.. مبللاً بمياه آسنة ينتفض فرقاً وغيظاً.. محاولاً الخروج بشرف من خسارة محققة.

يقرع الباب فى السابعة صباحاً.. زاما شفتيه و العينان تجحظان إنهاكا. لم ترحهما خمر البارحة ولا السجائر والمهدئات.."هل أجد عندك مزيدا من الخمر!" .. تناوله الزجاجة.. نصف نائم.. مبتلعاً غضبك.. و بانتظار أن يذهب.. تدور حول نفسك متردداً بين معاودة النوم أو الولوج إلى الحمام.. مختنقاً بنفثات تبغ عطنة و تيارات شحنة موترة تسوط وجودك بلا رحمة.. ذهنك يحتدم.. اللعنة هل يريد الزجاجة حقاً أم يغار من سكينتك !.. و يمسح الغرفة بعينيه مكفهراً.. مستفزاً من الهدوء والنظام والدفء !.. مصراً على

بعث قلقه فى المكان.. تبتسم فى مودة محايدة.. يزداد غيظاً.. سيضطر للذهاب بعد قليل.. يشحذ ذهنه بسرعة.. (كنت أريد شيئاً آخر.. لا يمكننى تذكره الآن!).. ويذهب!.. وهو.. وقد تيقن استحالة نومك الآن.. يشعر براحة مباغتة !.

المنطق الرمزى

أزعجنى إصراره على النظر فى ساعته كل خمس دقائق، وقد تقلص وجهه يأساً.. وغيظاً. معتقداً أنه غير قابل للفهم وقد قرأه مرتين على الأقل أثناء انهماكه فى التلخيص.. والتفييش. (والبرشمة).. كانت معاناته.. ليست بسبب قرب امتحان وشيك.. لا يشك فى رسوبه فيه أبداً!.. بل بسبب تلك الليالى المهدرة فى عمل لا يحبه وسهرات أبعد ما تكون عن طقس سهره اليومى... الشعور بالحر.. والعرق.. والهوام.. الذى لم يكن يعيره أدنى اهتمام فيما مضى.. تضاعفت شكواه منه عشرة أضعاف.. وارتسمت جهامة كئيبة على وجه كان يرهق من كثرة الضحك والصخب.. وتهدل فمه فى وجوم وسهوم وتعاسة.. لا شك أن ذهنه لم يكدّ فى محاولة لفهم ما يلخصه.. بقدر ما يكد بحثاً عن حيلة ما تنقذه من كآبة هذه الليلة!.. أزاح الأوراق جانباً.. مطلقاً تنهيدة مركزة.. وقال " لا شك أنى قد التقطت مرضاً قاتلاً..! "..فلم أرد.. أردف "عندما نمت مع الخادمة أمس الأول.. وكنت شارباً وشارداً.. لم انتبه".. فلم أعلّق.. أكمل "أعتقد أنى لم أفعل ذلك بالطريق

المألوف ـ لعلى أخطأت المكان..!..وربما آتيتها من الخلف!"
كظمت غيظى.. ولويت بوزى تقززاً.. أردف "قرأت فى جريدة
أن تلك الطريقة أحد أسباب مرض غاية فى الخطورة.. وبعد
الامتحان لابد من السفر إلى البلد لقضاء عطلة الصيف.. ولا
مكان هناك لمستشفى أو طبيب.. فكرت فى طمأنته بكلمات
قليلة.. حتى لا أفتح بابا لنقاش.. فقلت "اطمئن.. المرض الذى
قرأت عنه ما زال غير معروف فى بلدنا.. فليس هناك ما
تخشى منه.. فى الأجل القريب على الأقل.. وحتى.. لو صحّت
مخاوفك.. فلن تعانى من مشاكله قبل عشر سنوات قادمة، وأى
علاج لا يجدى معه.. فهو إذن مجرد احتمال بعيد.. لخطر ما
زال بعيداً.. لكن الامتحان غداً.. ولا شك فى حدوثه أبدا..
وستظهر أعراض نتائجه عليك فوراً.. فدع عنك هذه
الحماقات.. وذاكر!.."صمت مغتاظاً.. أضاع ساعة كاملة وهو
يقلّب الصفحات.. ويرتّب الكشاكيل.. ويتقلقلُ يمنة ويسرة..
كمن يجلس على نار.. إلى أن اهتدى إلى محاولة أكثر خباثة..
قال "أنا لا أخشى على نفسى فقط.. لكنى مشغول على "سعاد"
خطيبتى.. وابنة خالى كما تعلم.. المفروض أن نشرع فى الزواج
بعد الامتحان مباشرة.. وقد أصيبها بعدوى ما" ثم أردف
بطريقة أكثر دراميية.. " فما ذنْب هذه البريئة أن ألوثها

بذنوبى!" شعرت بالدم يشتعل فى عروقى إزاء إصراره وتخابثه.. قلت ".. إن مسألة زواجك من سعاد أمر مشكوك فيه ما دام يرتبط بنجاحك فى امتحان ما زلت تراوغ حتى لا تدخله.. وهناك ألف طريقة أخرى كى تصاب سعاد بالمرض.. ناهيك عن شكّى فى مسألة براءتها!..ما دمت لا تقابلها إلا فى المطلات الصيفية.. وأمامها عام بأكمله وهى تدرس فى جامعة الزقازيق.. وفيها من التلاميذ الأشاوس من قد يفوقونك فى كل المميزات.. ناهيك عن احتمال كونهم أقل تحوطاً منك فى هذه المسائل ولا أرى سببا يدعوك لوصفها بالبراءة. إلا لكونها تنتمى لعائلتك الكريمة.. وهى عائلة ميسورة الحال.. مشهورة بإطلاق الغرائز دون حد، ولا تنس قصصك المسلية عن فضائحهم مع الحمير والمعيز وما أشبه.. وطبعا لم ترو لى مغامراتهم الأخرى مع بنى الإنسان وهى لن تكون وقفاً على الذكور فقط كما هو حال الخليقة فى كل مكان، فلا محل لهذا الانزعاج المفتعل.. اللهم عزمك على تشتيت ذهنى.. وإضاعة وقتى!" .. وأسقط فى يده.. ولم يحر جواباً إزاء قسوة الحقائق.. وبراعة المنطق.. لكن المهم أنه قد نجح فى تشتيتى فعلاً..! وزج بأوهامه المقززة إلى ذهنى.. وأصبح تركيزى فى هذا المكان أمراً بعيد المنال... فكرت فى جمع أوراقى والعودة

إلى شقتى - رغم كآبتها - لاستكمال المذاكرة..، لولا أنى تذكرت أن خادمته لم تبرح بعد.. وذلك ليس من عادتها.. فأختها التى تأويها فى القاهرة لا تسمح لها بالتأخير بعد الثامنة قط!.. وتعد مبيتها فى الخارج من أكبر الكبائر.. وقد يكون لذهابى الآن أثر عكسى.. فيكتئب.. ثم يضاجع الخادمة مجدداً.. مما سيضاعف اكتئابه بالطبع وأشعر - أنا - من ثم بمسئولية ما فى ذلك..!، قررت الانتظار حتّى تخرج هى أولاً.. طلبت شاياً.. أعدته على عجل.. وضعته على الطاولة.. وانصرفت.. لاحظت أنه كان يشيح بوجهه عنها.، ربما حرجاً منى، ألقيت نظرة سريعة على الفتاة التى لم تتجاوز الثامنة عشرة بحال.. كان وجهها لا يخلو من جاذبية مؤكدة.. وجسدها مكتنزاً تهتز نتوءاته اهتزازاً ملحوظاً لدى أقل حركة منها.. ولها عجيزة أضخم قليلا من المعتاد..! انزعجت بهذا الانشغال المفاجئ. بأمر لا يعنينى إطلاقاً.. قلت لسامى.. عندما لاحظت أن الفتاة تستعد للانصراف.. "سأعود للمنزل لأنى مرهق جداً :. وأفضل النوم.. ومراجعة المادة فى الفجر.. فالملخص يفى بذلك ويزيد".. ذبلت عيناه وامتلأتا بدموع الرجاء الأخوى.. وطلب أن أبقى معه ولا أتركه وحيداً فى ليلة كهذه.. لا يعلم ماذا يمكن أن يحدث له بعد خروجى!، سكت لحظة ثم أردفت "إن رسوبك

فى المنطق عموماً ليس نهاية العالم.. وهناك فرصة كبيرة للنجاح فى الذور الثانى"! قال "لماذا كنت إذن تساعدنى الآن.. طالما ترى ذلك" قلت أنا أفعل ذلك بدافع كسر عاداتك فى التشتّت.. وستدرك قيمة ذلك فى المواد القادمة "! فقال إنه سيفعل مثلى.. سينام الآن.. وينهض مبكراً أيضاً!.. لم أعلق طبعاً على هذه الكذبة الجديدة وما أن خرجت الخادمة.. حتى ودّعته.. وذهبت.. أخذت أهبط الدرج حتى لا أضطر لمقابلة الخادمة.. مما يجعلها تطمع فى توصيلة بسيارتى التى اشتراها أبى منذ شهرين بعد سنوات من التمنع.. وقد أقنعته أنها أصبحت ضرورية جداً لمن كان له تفوقى ويستعد لدخول السلك الأكاديمى كمعيد.. ثم مدرس فى الجامعة.. وأن من شروط الدخول لهذا السلك العتيد.. ليس مجرد التفوق الدراسى.. بل أن الوضع المادى والمكانة الطبقية عندهم أهم من كل شىء. والسيارة هى رمز لهذه المكانة لا يمارى فيها أحد.. فباع قيراطين واشترى السيارة.. مما حملنى مسئولية جسيمة!.. فاقم منها شموخ أبى وتعاليه على أولاد عائلات يفوقوننا ثراء ومكانة وإصراره على وصفى بأستاذ الجامعة كأمر لا شك فى حدوثه.. كل ذلك مر فى خاطرى وأنا أهبط الدرج.. مما زادنى إصراراً على تحقيق خطتى الصارمة.. التى

لا أسمح لأى تهور أن ينال منها قط!، وصلت إلى السيارة.. ولدهشتى وجدتها ترتكز على مقدمتها.. جسدها يتثنى كمن تعانى إرهاقاً شديداً. تشير بيدها على حياء كمن تبحث عن تاكسى!.. اندفعت إلى الباب دون أن أعيرها التفاتاً.. وفى اللحظة الاخيرة.. وجدتنى - بفضل حمية صعيدية موروثة عن عائلتى - أقول لها " ما تيجى اوصلك فى سكتى!" شكرتنى بأدب جم.. وقالت " بس مش عاوزة أعطلك عن مذاكرتك!" قلت "لا مفيش عطلة ولا حاجة"، وبعد لحظات كانت تجلس بجانبى.. تفتح النافذة وتتنهد.. وأنا ألعن تسرعى وشهامتى الصعيدية التى تزج بى فى مشاكل لا قبل لى بها.. ولما طال تنهيدها.. وصمتها.. اندفعت بنفس الشهامة الغشوم.. أسألها فى لطف "فى حاجة مضايقاكى!" نظرت إلى بلحظ فاتر.. فأردفت "أنا عارف إنك متضايقة من اللى حصل من سامى!" فقالت "سى سامى.. ياريت كل الناس زيه.. ده جدع أمير وابن حلال.. هو وش كده.. بس غيرشى طيش الشباب - الدور والباقى على جوز أختى الهلف اللى عدى الخمسين!" واندفعت تروى لى بلفظ عار كيف اعتدى عليها فى وجود أختها النائمة فى الحجرة المجاورة.. وهى التى تكره خراب البيوت تحملت بصبر المؤمنين كل سفالاته.. وفكرت أن ترمى نفسها فى

النهر.. وهى حالفة ما ترجع تبات هناك تانى! ومش عارفة تعمل إيه دلوقتى!" وانهمرت دموعها ساخنة جداً.. فأسرعت إلى علبة المناديل "الكلينكس".. لزوم السيارة ونتشت لها واحداً.. سحبته من يدى دون أن تنظر إلى وجهى.. وزادت دموعها أكثر.. فأخرجت منديلى الحرير.. لزوم البدلة الجديدة المعدة لحفل التخرج.. ناولتها إياه فأخذته أيضا دون أن تكف عن البكاء.. أحسست بقلبى ينتحب معها.. وغامرت بوضع يدى على كتفها ملاطفاً.. فاحتضنتها ودفنت وجهها فيها.. فوجدتنى بحمية أعلى من سابقتها.. أتنازل عن كل حذرى وأعرض عليها المبيت فى منزلى!. رغم أنى لم أسمح بذلك لأى إنسان.. واتبعت ذلك بوصف شيق لمكانى الكئيب.. وذكرت لها الحديقة المجاورة التى ستراها عندما تفتح النافذة.. رغم أن أرض هذه المزبلة فى مستوى النافذة تقريباً - وأردفت أن ليس عندنا "بواب" من النوع الرذيل الذى يمارس الغلاسة على الخادمات والبائعين.. وكل جيراننا فى حالهم.. ولا يزورنى أحد إذ لم أعط عنوانى لأى مخلوق. انفرجت أساريرها، وشكرتنى بحرارة وغمرت يدى - وكانت ما تزال محتفظة بها - بسيل من القبلات الشاكرة الحارة..

فى صباح اليوم التالى.. أرسلت لوالدى برقية "والدى المحترم..

أصبت بمغص كلوى حاد مما منعنى من دخول الامتحان.. لا تقلقوا على.. صحتى تحسنت الآن سأضطر للبقاء فى القاهرة هذا الصيف.. استعداداً لدخول الدور الثانى.."

مشتاق لكم وحزين لعجزى عن زيارتكم

ابنكم الوفى

(....)

فى حديقة الأزبكية

ما عاد يدرك عدد المرات التى وقف فيها هنا.. ولا الساعات المريرة التى قضاها.. وعينه لا ترتفع عن الكعب البنى المهترئ لهذا الكتاب اللعين «الدرر السنية فى أسرار العقيدة المزدكية» وبداخل الغلاف ذلك الإطار المذهب الذى حفرته أيدى الصانع العثمانى فى القرن الماضى.. والعناوين ورؤوس الفصول بخط اليد الثلث.. وتاريخ الطباعة لا يبين منه سوى رقمين غامضين أحدهما الرقم المئوى (٨) ويسبقه الألف الغائمة تماماً.. ثم اخر رقم (٣) لابد أنه (١٨؟٣). وخمسين أو أربعين.. لا يهم.. الشىء المؤكد أنه من القرن الماضى.. واسم المؤلف ممزق تماماً!.. يمكن عن طريق العنوان وسنة الطبع الوصول إلى المؤلف ببعض الجهد.. كتاب يساوى ثروة حقيقية.. المصيبة أن ذلك الحوت الصعيدى.. فطن إلى أن هناك عجوزا أبلهاً يموت شوقاً إلى اقتنائه.. فطلب خمسين جنيهاً لا تزيد ولا تنقص! وكنت فى زمن مضى أستطيع اقتناءه بـ ٥٠ قرشاً.. لكن أولئك القردة الملاعين الجهلاء تنمو عندهم حاسة واحدة.. هى شم رغبتك فى الكتاب.. وكلما زادت مرات

ترددى.. وبانت اللهفة والوله فى العينين. وثق الحوت فى انتصاره الحتمى.. ورغم الجهل فإن أنفهم التجارى لا يخطئ حدسه.. أذكر كيف انتشيت وأنا أدقق وأفحص الكتاب.. واليد السمينة الغشوم تنتزعه منى.. وصوت الذئب "لا أترك هذا الكتاب.. أنت لا تقدر على ثمنه!" وأعاده للرف.. وأخرج الفوطة الصفراء.. وأخذ ينفض عنه الغبار.. وأنا واقف أرقبه كالعبد الذليل أشتهى نظرة الرضا من هيفاء متعجرفة! وأتركه وأمضى جاراً رجلاى فى قنوط.. أين لى بهذا المبلغ.. وأعيد الكرة للمرة العاشرة على التوالى.. وأقسم ألا أعيره أى أهتمام.. لكن العشق يزرى بصاحبه.. ها أنا أعود ثانية منجذباً لجلادى.. ويدعى السافل أنه لا يرانى.. لا يشعر حتى بوجودى.. لا يرد على تحيتى المترددة الوجلى.. مرتاحاً تحت مظلته الخشبية.. وأنا أتلظى بلفح أغسطس القاتل.. ويوماً بعد يوم.. ومهما كانت وجهتى.. أرانى هنا.. مسوقاً بسحر غامض.. يحدونى أمل واحد أن أجد أى إنسان آخر مكانه.. علّه يمرض.. أو تسحقه سيارة.. وأجد ابنه - أخاه.. زوجته.. أى شخص أقدر على مساومته! أف.. لو كان بين ضلوعه بعض الحس والرحمة لشيخوختى وفقرى!.. الأرض تصهد فى وجهى متحالفة مع الخنازير من أمثاله.. لو كنت شاباً.. لكنت هنا

عشر ساعات.. بل خمس عشرة ساعة متصلة.. بلا كلل..
وستأتى الفرصة حتما.. فى هذا القيظ.. ساعة واحدة تجفف
عظامى..، وحديقة الأزبكية.. المكان الوحيد الذى يمكننى من
كشف هدفى طول الوقت يكتظ باللصوص والقوادين والشواذ..
منذ عشرين عاماً لم أجرؤ على وطئه.. كانوا يسرقوننى فى
وضح النهار..، لكن.. المكان الآن.. يكاد يخلو من البشر.. عدا
عجوز ينكفئ نائماً على مقعد.. ما ضرنى لو افترشت المقعد
بجواره وعجوز مثلى ليس مطمعاً للشواذ والقوادين.. لن أخسر
شيئاً.. المهم أن أحسم اليوم.. سأضع حداً لتذللى.. أقسم إن
فشلت لن أعيد الكرة.. باستطاعتى أن أتحمل الجوع.. العاشق
لا يأبه لماء ولا طعام.. ﴿وعبر السور.. وجلس بجوار النائم..
ففتح له عيناً زاجرة ثم واصل شخيره بهدوء.. قعد كالتمثال
متحملاً حرارة المقعد.. واللظى الخانق﴾.. "المهم أن ترتاح
القدمان.. فلم تعودا تقويان على حملى.. وبعد ساعة سيكون
الجوع قد أنشب أنيابه فى كرش الحوت.. أمثاله لا بد يأكلون
فى أحد مطاعم العتبة الخضراء.. ليس لهم متعة أخرى فى
الحياة.. وربع ساعة تكفى وتزيد.. اللعنة.. أنا أحترق هنا..
وهو يجلس مزهواً فى جلبابه الواسع تحت المظلة.. وجرسون
القهوة يهرع إليه كل نصف ساعة بالمشروب الدافئ والماء المثلج

وتمباك الشيشة.. لكنه سيأكل حتماً.. الساعة تقترب الآن من الثالثة.. آه.. ما هذا.. دراجة ذات صندوق تقف بجواره.. يسوقها غلام أمرد.. يخرج له لفة مرقطة ببقع الدهن.. يسحب التاجر منضدة صغيرة كان يخفيها تحت التندة.. يفتح اللفة.. تنتفض أمامه قطع اللحم والكفتة.. الساخنة.. والخبز المحمص وأكواب السلطة التى تنز بماء الطماطم والطحينة.. يهبط عليها البائع كالغول.. يمزق الرغيف قطعتين.. يلقم فمه الواسع بقطعة لحم وقطعة خبز كبيرة.. ثم إصبع كفتة كاملاً غير منقوص.. ويده الأخرى ترفع علبة السلطة إلى فمه ليرشفها رشفاً كماء الصنبور.. الولد ما زال بجوار الدراجة ينتظر الحساب.. يهشه بيده: "بكرة.. بكرة ما فيش فكة دلوقت!" وعيناه تطق شرراً.. يا ابن الحرام تساوم أمثالى على الجنيه والنص جنيه وتلتهم كيلو كباب فى لحظة.. ولعله كيلووين.. إن منظر اللفة المكتظة أكبر من كيلو.. أنا أميز ذلك بسهولة.. لا يهم! قد ينهض لغسل يديه الملوثتين بالدهن.. أو للتبول وقضاء الحاجة.. وهنا تلوح الفرصة.. سيوصى جاره أن يراقب كتبه وهنا اندفع أنا.. فى أقل من ثانية.. أعبر التندة بلا اهتمام.. ثم أتوقف قليلاً.. ألمس الكتاب.. لمساً فقط!.. ثم أتركه في إهمال وقرف.. إن على تصويب الأخطاء القديمة..

ويلتفت جاره إلىّ:"أيوه.. أى خدمة.." أرد "لا.. بس كنت فاكره كتاب تانى".. "بس قوللى يا أستاذ إنت عايز إيه.. وحتلاقى طلبك إن شـــاء الله!!!"، "آه ممكن يكون ده طلبى بس شكله قديم.. ومهربد.. أكيد فيه صفحات ناقصة!" "سينهض محتجاً ليثبت لى خطل آرائى مدافعاً عن الكتاب.. مستعرضاً متانة الغلاف ووضوح أرقام الصفحات.. مستفزاً من استهتارى واحتقارى للبضاعة! "امسك الكتاب يا أستاذ وشوف بنفسك!" "لا.. لا.. معلهش.. دا مترب قوى" سيكون استفزازه قد بلغ مداه.. "باين عليك مش عاوز تشترى!" "أبداً.. والله.. بس لو فيه نسخة تانية عندك مفيش مانع.. ولا أقولك.. طب دى بكام!" سيفكر لحظة محاصراً باحتقارى.. ورغبته فى إثبات شطارته.. وإتمام الصفقة ليأخذ الثمن لنفسه أو جزءاً منه قبل عودة صاحب النندة.. سيقول رقماً أبلهاً.. لا شك لا يعرف قيمة الكتاب فهو متخصص فى الكتب المدرسية! ولم ير مثله فى حياته.. قد يبدأ بعشرة جنيهات ليصل إلى جنيهين كالعادة.. فأسرع بالرد "ده ما يساويش حتى ٣ جنيه!" وأكمل مشيتى الهادئة غير ملتفت إليه أبداً.. فيظن أنه كاد يوقع بى.. وقد تمكن من خديعتى.. "طيب.. هات ياللا علشان نستفتح منك!" ستكون الجنيهات الثلاثة جاهزة فى يدى اليسرى داخل

الجيب.. أتناول الكتاب باليمنى بأطراف الأصابع.. وأدفع له بالأخرى.. وأمضى.. مختفياً فى ثانية واحدة.. وبعد أسبوع أعاود المجئ.. وقد صورت منه نسختين أو ثلاثة.. وأعرض الكتاب للبيع مرة أخرى على التاجر الحوت أو جاره بـ خمسين جنيهاً لا تنقص قرشاً وسأرى وجهه حينئذ.. وعيناه تطرف غيظاً.. ربما زعق أو صرخ أو أغمى عليه.. وأشير له طبعاً على جاره الذى باعنى الكتاب فى غيابه.. وأتابع من بعيد المعركة الملتهبة بينهم.. وأنتقم لكل الأيام الماضية التى احترقت فيها بلهيب أغسطس.. وغطرسة هذا الكلب الجاهل.. لا.. هذه مخاطرة.. الأفضل أن آتى بصورة الكتاب وليس الأصل واضعاً عليها الغلاف السميك الأصلى.. الأسطى حسن المجلد يفعل ذلك لى نظير قروش.. لا داعى للمخاطرة بالأصل.. أف.. ياه الجو حارق.. جحيم حقيقى.. لا بد أن الحرارة تجاوزت الـ ٤٥ بمراحل.. والساعة تقترب الآن من الرابعة.. حلقى يلتهب بالعطش.. الصبر.. قليل من الصبر.. المهم أن يتحرك هذا الكلب.. بعد كل هذا الطعام والماء الذى عبه.. سيمتلئ كرشه.. ويحرق البول أمعاءه.. لا يعقل أن يبول فى مكانه أيضاً.. ها.. الحمد لله.. إنه يتقلقل فى مكانه.. ووجهه يختلج بالقلق.. إنه يقاوم بلا جدوى.. مطالب الجسد ليس لها حل.. ما دمت تأكل

كالحيوان.. ستمضى مهرولاً كالكلب.. مرعوباً أن تبول على نفسك.. ستذهب إلى المرحاض العمومى.. على بعد ٧٠ متراً بالضبط.. ستجد بضع أشخاص ينتظرون دورهم مثلك.. ستضع فى يد الحارس عملة معدنية صغيرة ليفتح لك المرحاض المغلق.. وتنتظر لحظة ريثما يفرغ من شاغله.. كل ذلك سيستغرق عشر دقائق على الأقل.. علىّ ألا أضيّع وقتاً.. ها هو ينهض.. يتحدث إلى جاره فعلاً! والجار يهز رأسه متصنعاً عدم الاهتمام.. سنرى اهتمامه عند أول زبون يقترب منه ها هو يبتعد.. ينظر وراءه فى تشكك.. وجاره ما زال فى مكانه.. يطمئن الحوت قليلاً.. يحث الخطى تجاه المراحيض.. يختفى.. الحمد لله جاءت اللحظة الحاسمة.. آه.. ما هذا أقدامى لا تقوى على التحرك.. جسدى يزداد ثقلاً.. الدنيا تغيم من حولى.. المقعد يدور بى بسرعة مجنونة.. يطير بى فى الهواء.. سأسقط من حالق.. سأصطدم بالعجوز النائم.. بل هو سيسقط علىّ.. آه اللعنة.. إننى.. إننى.. آه!.

مخبر عجوز

كان المقهى أصغر من أن يلفت النظر.. مجرد ثقب مستطيل فى الحائط المواجه لمنزلنا تحيط به محال واسعة من الجانبين، لم يكن بالطبع مقهى للجلوس.. بل منضدة صغيرة تسمح بعمل الطلبات وتجهيز الشيش.. يخرج بها القهوجى ليوزعها على المحال المجاورة، كان هو بالطبع الزبون الأول الذى يضع كرسيا أمام بابها وشيشة ويجلس كل تلك الساعات متحصنا بجاكت قديم وبريه يخفى صلعته ونظارة سوداء كالحة.. ومبسم الشيشة لا يفارق فمه.. غير آبه لبرودة الجو فى يناير.. ولا لأصوات السيارات الهادرة.. والمشاة.. والزحام..، لم يكن يفعل شيئا غير التدخين.. وعيناه مستقرتان بثبات على بوابة منزلنا.. منتظرا خروجى.

(٢)

كان يبدو دائما كرجل عجوز.. ربما يوحى بذلك تقوس كتفيه ونحافته.. ورثاثة ملابسه.. وبعض البثور المتناثرة على وجهه.. وحركة شفتيه المستمرة كأنه يرتل وردا محفوظا بمجرد أن أركب الباص (رقم ١٢) الذاهب إلى الجامعة.. كان يلحقه بطريقة ما.. دائما يلحقه..! و يكتفى بالوقوف قرب الباب.. لا يقترب منى أبدا أو ينظر إلىّ، عندما أنزل.. ينزل أيضا، فى

بعض المرات يكون الباص مزدحما فلا أتمكن من الدخول أكثر من متر واحد، فيبقى هو على السلم متشبثا بصعوبة وجسده كله فى الخارج، كان وجهه يشحب وتزرق شفتاه بسبب برودة الهواء وسرعة الباص، لكن كفّه القابضة على ماسورة الباب المعدنى.. كانت قوية.. يد تعودت على كثير من المشقة، وحين أدخل الجامعة.. كان يختفى ، ربما أبقى فى الكلية حتى وقت متأخر مصحوبا بكثير من الأصدقاء وقليل من الطلاب المشبوهين، وعندما أخرج لا أجده هناك .

(٣)

قبل خروجى من المنزل كنت أقضى ساعتين بين الاغتسال والإفطار وعمل بعض المكالمات التليفونية، كان لزاما أن أستيقظ فى السادسة، ذات صباح.. هرولت إلى السطح بملابس النوم رغم برودة الهواء والشبورة.. كان الرجل جالسا هناك ينفث دخان الشيشة فى هدوء.. يحيط عنقه بكوفية جرباء، يومها تعمدت أن أطيل بقائى فى المنزل حتى العاشرة، عندما نزلت كان لا يزال هناك.. ووثب معى إلى الباص، لم يغير من عاداته يوما واحدا، ولم يحدث أن نظرت إلى المقهى مهما كان الوقت مبكرا .. إلا ووجدته هناك فى جلسته الأزلية، وعندما يكون مزاجى رائقا، أحب أن ألهو قليلا، فأقفز من الباص بين

محطتين قرب أحد الممرات التى أعرفها فى ميدان الباشا.
واخترق الحارات الصغيرة بسرعة شديدة وأخرج من اتجاه آخر تماما وألتقط تاكسيا إلى الجامعة. وعندما أعود إلى المنزل مساء أجده واقفا فى انتظارى ويبدو عليه القلق والاضطراب وعلى مقربة منه رجل آخر أصغر سنا وأضخم جثة.. يشبه سائق تاكسى.. كنت أصعد بهدوء إلى منزلى.. وأنام.

(٤)

فى أيام الجمع والعطلات كان هذا الرجل اللحيم يصاحبه فى الجلسات الصباحية.. وكل منهما أمامه شيشته.. نادرا ما يتبادلان الحديث معا، وإذا لم أخرج حتى صلاة الجمعة.. كانا يختفيان. وبعد الظهر يعودان إلى المقهى مرة أخرى.

(٥)

فى المرتين الوحيدتين اللتين اعتقلت فيهما من المنزل لم يكونا موجودين، دائما هناك آخرون يقضون الليل داخل سيارة تكون ملتصقة بالمنزل، قرب الفجر كانوا يصعدون بصحبة ضابطين مهذبين وبعض العساكر، كنت أخرج معهم بهدوء حتى لا أوقظ أبى، كيلا تعاوده الأزمة القلبية.

(٦)

فور تخرجى تركت المنزل، لم أقطن مكانا واحدا، كنت أبدل سكنى على الدوام، أختاره فى موقع يسمح بعدة مخارج، فى حارات خلفية بعيدا عن أى محلات أو مقاهى كنت أختبر الطريق ذهابا وعودة، لم يحدث أن وجدت من يراقبنى ولم يحدث أن قبض على من مكان سكنى أيا كان.

(٧)

بعد سنوات طويلة، نسيت تلك الأيام.. ومتعة المغامرة بالهروب من المراقبة.. فى فترة السبعينيات اللذيذة، ذات يوم ركبت ميكروباص من إشارة مرور ميدان الإسعاف، جلست فى أول مقعد، بعد أمتار كان الميكروباص قد امتلأ بالركاب، وصعد آخرهم - كان هو الأصلع العجوز، هو بعينه، كان يبدو كشجرة جافة.. يتوكأ على عصا.. يصعد السلم ببطء شديد.. كان يعانى عدة أمراض بلا شك.. وقد نالت الشيخوخة من عظامه تماما، لم يكن يرتدى نظارة شمسية بل أخرى طبية ذات إطار رخيص يجعل وجهه مضحكا على نحو مأساوى، ازدادت ملابسه رثاثة.. كأنه لا يبدلها أبدا، الحذاء الميرى بدا

أكبر من قدمه الضامرة، اتكأ بظهره على مسند مقعدى وكفه المعروقة قبضت على الإطار المعدنى حتى لا يسقط مع فرامل مفاجئة، كانت كفه قد ازدادت نحافة وخواء وتمكنت منها رجفة لا يمكن التحكّم فيها.. مما ذكرنى بتـــلك الرجفة التى لازمت أبى فى الشـهـور الأخـيـرة الســابقــةعلى وفـاته، ورغم حـر أغسطس، كانت أطراف فانلة صوفية مهترئة تطل من كم قميصه، كانت مضمخة برائحة تبغ وعرق قديم.

(٨)

لا شك أنه جاوز السبعين، تذكرت أيام كان يجلس فى برد يناير كل تلك الساعات الممضة والشيشة فى فمه.. تساءلت وقتها ألم يكن بوسعهم إرسال آخرين أكثر شبابا !، وعلمت بعد ذلك أن المخبر القديم هو الأقدر على الصبر والمتابعة.. وأن الخبرة هى أهم شئ فى هذا العمل. تمنيت بدافع أكثر من مجرد الفضول أن أعرف الرجل عن قرب، أن أبدأ معه حديثا ما، شعرت ببلاهة هذه الفكرة.. ماذا إذا خطر له أننى أسخر منه !، لم أكن أحمل له أى مشاعر سيئة.. على العكس ـ شعرت بحزن لما يمكن أن تفعله الشيخوخة اللعينة فى إنسان قد نشأ بينى وبينه نـوع من الصلة، رغم أنى لم أعرف اسمه.وهل كان

ذلك يفيد فى أى شىء. شعرت أن بيننا مودة كامنة.. تلك المودة التى يحدثها الجوار القديم.. أو تراكم الزمن.. بين بعض الناس الذين قد لا يتبادلون الحديث أبدا.. لكنهم يرون بعضهم بعضا لعدة سنوات متصلة، فتملكتنى رغبة فى اقتراب أكثر من إنسان ظل يرانى كل يوم وينظم حياته وأيامه وشهوره حول موعد خروجى وعودتى، نوع من الحنين للقديم. تذكرت فى بعض الأيام النادرة، كنت لا أجده على المقهى فأشعر بانقباض.. كنت أقول لنفس (لعله مرض أو مات) كان مرشحا لذلك على أية حال. هل يمكن أن أغامر وأنفحه بعض المال هل يقبله منى أو يشعر بإهانة ما.. أفكار كثيرة من هذا النوع ظلت تزاحم رأسى.. فى لحظة.. وجدتنى أنهض وأعرض عليه الجلوس فى مكانى. استدار إلى الكرسى.. كان يغمغم بصوت واهن " مايصحش.. والله يا بيه ما يصحش. ربنا يستر طريقك " وجلس.. دون أن ينظر إلىّ..

(٩)

لا أعرف لماذا أسرعت بالنزول فى أول محطة تالية، وقفت أتأمل الباص حتى اختفى تماما.. لم أر الرجل بعد ذلك أبدا.

اللقاء الأخير

. اعتاد أن يجلس فى ذلك الكازينو حوالى الساعة الثانية ظهراً كل خمسة عشر يوما، يتخيلها آتية بوجه محايد ونظارات توحى بالصرامة، ترتدى التايير البنى ذاته، وفى ملامحها جديّة معقولة لا تشجع أحدا أن يطاردها، تهبط من القطار، تستقل تاكسيا مباشرة إلى المكان، لا تحمل حقيبة كبيرة كمعظم المسافرين، تأتى يوم الخميس.. وترحل إلى مدينتها مساء السبت، لم تتخلف مرة واحدة حتى الآن.. لكنه كان قلقا هذه المرة بسبب عملية إجهاض كان عليها أن تنجزها قبل سفرها، كانت ناضجة بما يكفى بحيث تجيد التصرف فى مثل هذه الأمور.. قبل أن يودعها فى المرة الأخيرة.. قالت.. "كان غريبا أن يأتينى هذا الحمل فى الوقت الذى حسمت أمرى بتركه وقد عرفت أن له علاقة أخرى بإحدى الصديقات.. كما قد عرفت أنها تركته بعد شهرين أيضا.. لكننى كنت قد حملت وانتهى الأمر!".

قال : هل تشعرين بالأسف لذلك!؟.

قالت : نعم إلى حد ما.. فقد كانت تلك المرة بالذات سيئة

جدا.. حدث ذلك دون أى قدر من المتعة.. حتى أنه لم يكن منتصباً، فى الحقيقة لم يحدث أن كان منتصبا أبدا.. كان ببساطة خائفا.. ويرتجف واضطر أنا أن أهدئه، كان يخشى زوجى السابق خشية الموت رغم انفصالى عنه منذ عامين.
(ظهرت على مدخل الكازينو.. كان وجهها متهللا ومرهقا.. طلب لها بيرة.. وطمأنها أنه وجد مكانا لهما عند أحد أصدقائه.. يذهبان إليه بعد الغداء)

(٢)

أمضيا الليلة بصحبة صديقهما وزوجته، شاهدا فيلما فى التليفزيون بعد العشاء.. ثم ناما على الفور، كان كلاهما مرهقا جدا.. فى الصباح.. ذهب صديقهما وزوجته إلى العمل.. تناولا الإفطار وحدهما.. فرحين، كان المكان لهما طيلة اليوم.. قالت.. "تمت العملية أول أمس.. ما زال هناك بعض الألم.. آسفة لن أستطيع أن انام معك!"

قال : طبعا.. لا بأس.. !

قالت : تعرف أنه لم يكن ذنبه.. كنت أنا التى أريد ذلك!.

قال : تريدين ماذا ؟

قالت : أن أحمل، لا أعرف لماذا، كنت أخشى وسنى يقترب

من الثلاثين أنى لم أعد أقدر على أن أحمل.. كان ذلك يفزعنى!. قلت له.. "افعلها فى الداخل هذه المرة".. لم تكن حتى مضاجعة بالمعنى المفهوم.. ولا متعة.. ولا أى شىء..

قال : أعرف.. لا داعى للشرح!.

قالت : لكنى لن أعود إليه أبدا!

قال : هل ما زال يلح ؟

قالت : أكثر من الأول - وكل مرة يحاول منعى من السفر - يخترع لى موعداً ما يعتبره أهم من كل شىء.. حتى لا آتى إليك.. شخص غريب الأطوار تماما

قال : إنها رغبة فى التملك ولا شك!.

قالت : ربما بعد أن نبذته الفتاة الأخرى التى خاننى معها شعر بالخسارة..!

قال : هل يعرف أنك تعرفين ذلك!

قالت : ربما.. لكننا نتجنب الحديث عن ذلك.. لا نتحدث إلا عنك!.

قال : عنّى أنا!

قالت : نعم.. يقول دائما أن لا شئ يربطنى بك سوى الجنس فقط!

قال: هو يقول ذلك!

قالت : أيوه.. وهل هناك شيء آخر بيننا!

قال : ربما ينشأ فى المستقبل؟

قالت : لا داعى للأوهام.. إن أفضل ما فيك هو الوضوح.. فأنت لا تكذب أبدا!

قال : وأنت هل تكذبين!

قالت : أحيانا.. لكنى أقول له كل شئ!

قال : كيف!؟

قالت : أصف له كل مرة.. احكى له بالتفصيل حتى دون أن يسأل كنت أصف له متعتى.. قلت له إنك تفعلها معى ثلاث مرات على الأقل وأننى أصل للذتى كل مرة

(احتضنته فجأة بقوة شديدة.. أخذت تقبله بعنف محموم بعد دقائق، كانت تلهث من الرغبة والتعب..)

قالت : ينبغى أن أسافر اليوم!

قال : لماذا!

قالت : هناك عمل ينتظرنى غدا.. لابد من السفر!

قال : حسنا.. هل ستقولين له إنك نمت معى!

قالت : طبعا !

قال : لكنه لم يحدث!

قالت نعم سأكذب!

قال : وهل ما زال يصر عليك ؟

قالت : أكثر من أى وقت مضى! حتى أنه يتعجل الزواج بى!

قال : أشعر بعدم الإرتياح لهذه الطريقة!

قالت : وأنا أيضا! أصبح يبكى وهو يودّعنى فى المحطة، مسكين.. أعتقد أنه قد نال كفايته تماما!.

قال : إذن ستعودين إليه فى نهاية الامر!

قالت : أظن ذلك!

قال : لماذا!

قالت : لابد من ذلك، لم أعد أحتمل إلحاحه وندمه.. لقد ارهقنى تماما.. هو بإلحاحه المستمر، وأنت أيضا.. بالسفر كل أسبوعين.. وشقق أصدقائك.. هذا الوضع اصبح مرهقا جدا!

قال : لا بأس!

قالت : أنت لا ترى احتمالا آخر!

قال : هم.. افعلى ما تريدين أن تفعليه.. ما ترينه مناسبا لك فأنا لا أعرف هذا الشخص.. وهل يمكن أن انصح بشيء!

قالت : لا.. بالطبع انت لا تعرفه..!

(ارتدت ملابسها بسرعة ـ حملت حقيبتها.. واستعدت للنزول..)

قال : هل تحتاجين لشيء!

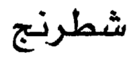
قالت : لا.. معى نقود كافية..

قال : هل أوصلك للقطار!

قـالـت : لا.. سـآخـذ تـاكـسـيـا، لا داعى لنزولك كل هذا المشوار.. وتعود وحدك..

قال : وداعا.. إذن!

قالت : وداعا!


شطرنج

فى صباح الجمعة الماضى.. بينما أهبط الدرج، صادفت جارى الشاب شديد الدماثة والحياء. نظر إلى شذرا .. لم يرد على تحيتى.. أو يشك لى كالمعتاد ازدياد التهاب المفاصل والبروستاتا وجشع الأطباء، عبرت الشارع مندهشا .. جلست على المقهى المواجه للمنزل أراقب عجوزين على المعاش يلعبان الشطرنج، و أحتسى شايا رديئا، وجدتنى – دون وعى - مهموما بما أكون قد فعلته بحيث يغضب منى ذلك الجار الدمث.. أنهكت ذاكرتى دون جدوى..، بعد ساعة مر على الجار نفسه.. كان زائغ النظرات.. لا يبدو عليه أنه لاحظ وجودى أو لاحظ وجود أى إنسان.. قررت نزعه من رأسى.. عدت إلى الكهلين وقد أشرف لعبهما على النهاية.

(٢)

كان الدور - مثل ثلاثة أدوار أخرى سبقته – يكاد ينتهى بالتعادل السلبى، لولا أن أولهما - والأكثر نحافة من صاحبه - كان أكثر عصبية وتهورا .. فاجأنا بتضحية لا داعى لها .. وبعد

مذبحة البيادق السريعة.. كان قد انهزم..، وقبل أن يكمل صاحبه ضحكته المعتادة وتناول ما تبقى أمامه من الشاى البارد.. إذ بالأول يعلن أنه قد فاض به.. وينتفض بعصبية مسقطا الطاولة.. محاولا ركل خصمه البدين فى مكان حساس حتى يجبره أن يكف عن الضحك، تناثرت قطع الشطرنج كلها على الأرض، واستطاع الأول إنقاذ كوب شايه بمعجزة حقيقية، صمت البدين مذهولا من سلوك صاحبه الذى يعرفه منذ أكثر من أربعين عاما.. كان وجهاهما محمرين جدا يوشكان على الانفجار و إطلاق الحمم المروعة.

(٣)

بعد لحظات.. كانا قد تصافيا.. وبدءا تجهيز الرقعة للعب دور أخير أمضيا عشر دقائق كل يصر أن يدفع ثمن المشروبات عن الآخر حتى كادا أن يلتحما ثانيةً.. انتظرت حتى رأيت الدور يقترب من نهايته.. كان الوضع كسابقه بالضبط.. حتى استطعت أن أتنبأ لكل منهما بالحركة التالية.. نجحت فى ذلك مائة فى المائة.. شعرت بالملل، تركت المقهى، أفكر فى شاى جيد أعدّه لنفسى و أحسوه على مهل مستمعا لبعض الموسيقى.

(٤)

على الدرج.. لمحت نور جارى مضاء، وقلما يفعل ذلك فى وسط النهار، قلت إنه ربما يمر بتغيير مثير فى حياته!!، صعدت الدرج الأخير، أعددت الشاى، ذهبت إلى حجرة المكتب التى تطل نافذتها على حجرة جارى الرئيسية، وبينما أحسوه لم أستطع أن أزيل انطباعا كئيبا سببه لى حين لم يرد على تحيتى هذا الصباح، نهضت لأغلق النافذة حتى لا ينزعج جارى من صوت الكاسيت.. لمحت من نافذته ظلا مستطيلا أسودا يتحرك جيئة وذهابا.. لم يكن من طبيعتى أن أطيل النظر فى نوافذ الآخرين، لكنى لم أستطع تحويل عينى عن هذا الظل الغريب، فجأة.. أدركت أن الظل لجسد آدمى معلقٍ فى السقف.

(٥)

شعرت بقلبى يغوص فى أحشائى.. جلست فى مقعدى عاجزا عن الحركة.. أو الصراخ.. أو فعل أى شئ.. مضيت أحتسى الشاى فى صمت!



لقاء عابر

ذلك الوجه الشارد.. الجسد الفتى.. ما إن تراه حتى تتوق إلى ضمه.. واستبطان أغواره السحيقة.. عينان واسعتان تشرقان بالذكاء.. والشبق !.. اقتربت منها.. نظرت فى كراسها.. يدها المرتعشة تحاول رسم زهرة طافية.. "طالبة فنون ؟".. " نعم ؟" أجابت والدماء تنتشر فى وجهها الخمرى وألمح نبض قلبها الواجف كطائر مذعور.. مددت يدى أتناول كراسها.. لم تمانع.. صحَّحت رسمها وهى ترقبنى.. بعينين مترعتين خوفا.. وبهجة.،، قلبت صفحة أخرى.. بدأت فى رسمها هى.. العنق الطويل الممتد.. انحناءة الكتف المستدير.. ثم تجويف الترقوة حيث تنبثق أصول النهدين.. أطلت التظليل.. كمن تتحسّس أصابعه كتلة ملتهبة.. عيناى تكادان تعريانها تماما !..

-"لم يحدث أن رسمنى إنسان قط"!

-"لأن ذلك مستحيل على نحو ما"

-"لكنك تفعل الآن.."

-"اعتدت على المحاولة.. والفشل؟"

ثم أردفت.."إننى أستمتع بالمحاولة على كل حال !"
شجعتنى بنظرة حانية.. أخذت أصابعها فى يدى.. كان نبضها
يصل لكل أطرافى.. همست لها.. "أمامك إنسان وحيد
ومرهق.. ربما يستمد منك قوة.. إن عينيك تبددان كآبة عالمى
!" أراحت خدها على كتفى.. تعجبت من نفسى كيف أكون بهذا
الصدق والكذب فى لحظة واحدة!.. تصلبت عيناى على ثغرها
ترقبان زغبا مذهبا ينبت حواليه.. يصهد بالعرق.، شعرت
بعينى فاحتقنت بلون قرمزى.. آه ذلك الغدير الرائع.. كم أتوق
إلى لمسه!".. "أتعرفين.يا سعاد أنت حقيقتى الوحيدة !" التصق
فمى بالعنق تنسمت العطر الممتزج بالعرق.. أغمضت عينيها
تكتم تأوها عميقا.. ذقت ملوحة مسكرة ونبضها يصاعد فى
حواسى فتشرق بالفرح.. ولم أذهب أبعد من ذلك.. افترقنا
على موعد آخر.. بعد يومين ـ لتقضى أجازتها نصف السنوية..
معى !! فى الإسكندرية !.. ذهلت من جرأتها.. كيف تقضى
أسبوعين مع إنسان لم تعرفه بعد!

(٢)

لم يغمض لى جفن طيلة اليومين التاليين.. كانت
حلمى الوحيد.. كلما أغمضت عينى أرى عيونها المغمضة

تلذذا .. يا إلهى.. والفم المزموم على آهة مكتومة.. وصوتها المتهدج بالخدر.. فى اليوم الموعود ذهبت إلى المحطة.. خائفا ـ أرتجف كطفل.. وأقول لنفسى.. إن لم تأت فقد انتهيت !..

(٣)

كانت تقف على رصيف المحطة تتلفت فى قلق.. لحظة وضعت يدى على كتفها.. لم تدهش ولم تلتفت..تضرج وجهها بالفرح.. وضمت أصابعى على كتفها الصغير.. همست.."خفت ألا تأت!".."مستحيل".. شعرت أن سويعات الطريق كانت دهرا.. دلفنا إلى شقة المندرة.. المنزوية على سطح عمارة قديمة.. تكابد شتاء الإسكندرية.. ورائحة الملح والرطوبة والحوائط الكالحة تزدهر بفرحنا..

(٤)

بعد ثلاثة أيام.. كنا نفيق من غيبوبة مسكرة.. عاريين.. نفتش أرجاء المكان.. بحثا عن كسرة خبز منسية نهزم بها جوع أحشائنا المتقدة.. نرتعب من خاطر النزول إلى الشارع وتبديد حلمنا ولو لساعة واحدة فى البحث عن ضرورات تافهة !.. ثم نعاود الصعود إلى ملاذنا الدافئ.. متخففين من كل ملابسنا..

نرى أجسادنا وحدها تلمع بالاشتهاء المقدس.. فى حجرة عارية من كل شئ إلا سرير ومدفأة.. وزجاجات البراندى.. نشربها فتلهب عطشنا إلى ضممات لا تعرف الارتواء.." آه.. يا صغيرتى.. لو نظل هكذا.. متلاصقين جدا مرة.. وإلى الأبد..".. وفى الليل الحالك.. أفتح عينى، أراها على ضوء المدفأة الخافت.. تربت شعرى كأم حانية.. أغمض عينى ثانية.. أنتظر حتى أسمع انتظام أنفاسها.. فاستيقظ، أرى حسنائى الصغيرة ترقد كطفلة.. هدها اللعب.. مبتسمة.. منفرجة الشفتين تضم أثداءها الصغيرة المتوفزة.. أزيح اليدين برفق لألمس نتوءات الجسد النبيل بأصابع حانية.. وبلسان القط وعينيه أرشف من ينابيعه المقدسة.. أغمض عينى ثانية.. ومسامى كلها تستصرخنى.. "لا تفلت هذه اللحظة الخالدة "

(٥)

فى الصباح.. أنهض قبلها.. أرخى ساعدى الواهن على إطار النافذة. محملقا فى امتداد البحر.. وأمواجه المنهزمة تنحسر رويدا... وحزن ثقيل يضغط على صدرى...

يا له من صباح جميل

(١)

أستيقظ قرب الفجر.. أسير على أطراف الأصابع. أصيخ السمع لإيقاع تنفسها. وأمسك أنفاسى تماماً.. أضغطها للداخل أقترب.. أنظر إلى الجسد الصغير الهادئ.. وفى لمح البصر أنتقل بعينى إلى الوجه.. ثم إلى العينين.. الأنفاس هادئة.. منتظمة.. إغماضة العين. رفات الرموش المسدلة.. استرخاء الذراعين.. كل شىء هادئ.. بعد لحظة.. يمكننى التنفس.. آه.. إنها تبتسم فى نومها.. فأل طيب!، وأثب على أطراف الأصابع.. عبر الصالة.. إلى المطبخ.. أصنع قهوة.. ثم فى خفة الطائر أحملها إلى الصالة.. إلى المكان المعتاد.. وعلى بعد أمتار قليلة من السرير الصغير الذى أراه عبر الباب الموارب.. وأفتح الكتاب دون أى رفيف.. أبدأ فى تحلية القهوة.. اعتدت تقليبها دون صوت.. أتقنت كيف تدور الملعقة داخل الكوب دون أن تصطدم بجدرانه أو تلمس القاع.. تعلمت كيف أفتح الأبواب والنوافذ بأن أكاد أحملها من مفصلاتها.. لأضمن عدم احتكاكها بأى من الجوانب، وأدخل قليلاً من الضوء، ..

أقرأ بضع صفحات.. أشعر بسعادة أن أكون حراً.. أن أنجذب لمشاعر كونية.. ولو لمدة ساعتين فى البكور!.. والكارثة حقا لو أنى غفوت بعد السادسة صباحاً.. مستمرئاً النوم لأى سبب لبعض الوقت.. فسأصنع قهوتى وأحملها بذراع واحدة.. ويتوالى رفضها لكل ما يقدم لها.. ويتحول ذهنها الصغير إلى طاقة خبث عنيد لابتزاز المشاعر والسخط على جرائمى النكراء.. لماذا.. وبأى حق.. عندما تنفتح العينان الجميلتان.. وتتثائب وترفص الهواء مرتين أو ثلاثاً وتصدم بكفيها الدقيقتين الحليات المعلقة على جوانب السرير.. عندما تفعل كل ذلك لا تجد من يهرع إليها من يبتسم ويداعب.. ويحملها على الفور مع كلمات الحنان والإعجاب والتوق..!

(٢)

للحظة.. خلت حركة صغيرة،، المبتدأ،، اصطدام الذراع الصغير بجدران السرير المرتفعة احتكاك اللعب البلاستيك بالخشب.. شبه غمغمة.. أذهب إليها على أطراف الأصابع.. ربما تكون مجرد حركة لا إرادية أثناء النوم.. شقشقة داخلية.. ركلة هواء.. ضيق بثقل الغطاء.. أو بعض البرد جرؤ على التسلل إلى الجسد الملائكى..،، والخطأ الذى لا علاج له أن

تظن أنها استيقظت بالفعل.. فتتحرك بحرية.. وتقترب دون حذر.. فتومض العين الصغيرة.. بلمحة سريعة.. غاضبة.. مندهشة من وقاحتك.. وتقع الواقعة.. لأن الرأس الصغير لم ينل كفايته من النوم.. وسيبدأ عقابك فوراً.. ودون إبطاء!.

كم يقى الحذر من عواقب.. أفهم الإنذار الزائف.. أعود للأريكة على أطراف أصابعى.. أفتح الكتاب.. تقفز السطور داخل العين والرأس.. تتلوى فى تيار جارف عذب ممتع.. إذن ما زلت فى زمن العتق.. لا لست متعجلاً.. لست وجلاً.. الوجل لا يفهم شيئاً.. لكنى لم أنفعل كفاية بعد!.. القهوة لا تزال ساخنة.. كوب آخر وأكون على ما يرام.. سترفع الضغط قليلا!.. تريك المعدة.. لا يهم! المهم.. هل باستطاعتى أن أنهى هذا الفصل.. هل أصل إلى الفصل الذى يليه.. صفحة منه فحسب.. حجر وراء العجلة يمنع العودة إلى الفصل المراوغ اللعين.. الذى لا ينتهى.. آه.. اللعنة!.. حركة ثانية!.. غمغمة أعلى قليلا من سابقتها.. هرولة جديدة.. لا داعى للمغامرة بارتداء الشبشب.. الأرض باردة.. لا يهم.. لن يستغرق الأمر سوى ثوان معدودات.. ألحظ الوجه ثانية.. الحاجب الأسود المستدير.. وأجفان مشدودة مرسلة.. الخد الأسيل.. الوجه الباسم المسترخى.. يا للخبث!.. إنها تشم رائحتى بطريقة ما..

وتقرر.. هل تستيقظ الآن؟! هل تفتح العينين.. وإذا فعلت هل تعاود النوم من جديد!.. يا إلهى.. أحتاج إلى ساعة أخرى فقط لأكمل هذا الفصل.. إن شعورها بقربى حقيقة لا شك فيها.. إنها تستدير على الجانب المعاكس.. ثم فجأة.. بحركة خفيفة.. يصبح الوجه قبالتى تماما.. يبتسم!.. الوجه خطوط ودوائر.. دوائر جميلة حقا.. لكنها رحيمة القلب.. لن تبدأ معزوفتها الآن!.. لكن لا بأس من وجودى فى مرمى النظر.. من يقينها أننى هنا.. طوع البنان.. إنها تشمنى دون ريب.. وتبتسم لهذه الرائحة الحميمة المطمئنة.. أكاد أسمعها تشقشق سأمهلك دقائق أخرى.. بضع دقائق فحسب!..

(٣)

عندما سافرت وتركتها.. كانت نائمة، نظرت إليها.. حبست دمعة صغيرة.. وهرعت إلى المطار.. لا معنى لإفساد نومها، أن يكون بكاءها آخر ما أسمع.. لا أحتمل دموع التأنيب.. يكفينى عالمٌ من الدوائر الجميلة.. أتخيل عينين سوداوين.. غضبى.. دامعة.. علمت بعد ذلك أنها كفّت عن الضحك يومين متتاليين! هل بوسعى تخيل حزن طفل!.. ومكثت شهراً.. أطوف بالكاميرا فى كل مكان.. بهوس محموم..

بحثا عن وجوه.. وخطوط.. ودوائر ناعمة.. رقيقة... ولا أشعر بثقل الكاميرا.. والقيظ، إلا حين أجلس مهدودا.. وذراعى قد فقدا الإحساس تقريبا.. وكل جسدى سابح فى العرق.. وكل المرئيات قد تحولت إلى عالم من الدوائر الخطوط التى تشد قلبى من الداخل كأسلاك دقيقة تضغط على الروح.. أصبحت عيناى وقحة تجرّد الوجوه والأجساد.. تحولها إلى دوائر وخطوط وظلال.. تبحث عن روحها المختبئة خلف ركام من التفاصيل الغثة.. للمرئيات جميعا هذه الروح.. هذه الأسلاك غير المنظورة.. كل تجعيدة وجه.. نمنمة غضون.. لكل رفة هدب دقيق.. افترار ثغر.. كمشة يد.. هزة ساق تجلس.. تتمدد.. تعدو.. تصنع خطا وظلا ودائرة.. حتى أحجار الأرض.. التى حفرتها.. ونعمتها.. وشققتها آلاف الأقدام.. ودفأتها أجساد لا حصر لها.. لكل حجر وجدار شكل وجسد وقلب.. أصارع إرادة إمساكها.. إحساسها.. طبع ملمسها الدافئ على ورق حساس.. عبر عين كاميرا ثقيلة.. أستشعرها فى خفة النسيم.. وأنا أكمشها بيدى كأعز ما أملك.. أخشى عليها من ذرات الغبار اللعين.. من كل ما يخدش العين الحساسة.. التي تسهر معى.. وعلىّ كأم،.. وعبرها سأمتلك العالم.. أو أستشعر امتلاكه!.. حتى أسطر الكتاب الذى أمامى

وجدتنى أضغط عليها دون وعى أتلمسها.. أوسّع دوائرها..!
أنظر فى قاعها بحثا عن حجر العين المختفى.. يا إلهى!..
تذكرتها الآن.. وهى تحاول أن تمسك بالخطوط.. مثلى
تماما!.. تشخبط على الورق خطوطها الهوجاء.. ثم ترمى
بالقلم بعيدا.. وتدفع أصابعها الدقيقة إلى الورقة تحاول أن
تمسك الخط!.. تتخيل له وجودا.. ناتئا.. وعندما.. لا تجد
شيئا.. تمزق الأوراق فى غضب.. كيف تتحدى رغبتها العنيفة
فى التملك.. كيف تصنع الخطوط.. تخلقها!.. ثم لا تجدها..
وأدفع أمامها بأوراق جديدة.. وقلما.. وتخط.. وتحاول
الإمساك.. ثم تكف عن لعبتها.. وتصيخ السمع فى تحفز إلى
صوت الموسيقى. وتبحث عيناها عن مصدر الصوت.. حتى
تلتقى بسماعات الكاسيت.. أعلى الحائط.. وتنظر عيناها فى
لا مكان.. ورويدا.. رويدا.. يهتز الجسد الصغير على إيقاع
الموسيقى.. ويستمر فى الاهتزاز.. وأتحرك مقتربا منها دون
صوت.. فتكتشف دنو وجهى بأصابعها الصغيرة جدا! "آه"
متصنعا الألم. وتضحك.. وتغمض عينيها وترقص طربا..!

أتذكر فجأة أنى نسيت شيئا على الموقد.. وأتركها لعدة
ثوان.. فتهرع خلفى كالجرذ.. وهى تخبط الأرض بالأيدى
والأرجل.. وتشهق خوفا.. وطربا.. تظنها لعبة جديدة.. وربما

تخاف من هروب آخر!.. والتفت إليها وأعود خببا.. أرفعها فى الهواء.. قبل أن تصطدم يدها بشىء من الأسلاك المكهربة فى أسفل الجدار.. وقلبى ينخلع رعبا!.. ولا أبالى بنحيبها المحتج.. وبعد لحظة تخمش وجهى من جديد.. لتمارس لعبتها المحببة.. وتجذب رأسى وعنقى.. تدفن رأسها فى صدرى.. وهى ترمق بابتسام خبيث!.

أسمع غمغمتها مجددا.. إنها أعلى مما سبق.. ألقى الكتاب مفتوحا على الأريكة.. وأهرع إليها فى لمح البصر.. وإذا بالعين السوداء قد انفتحت على سعتها.. وهمت بالبكاء .. أهدهد وجهها بيدى.. فيفتر ثغرها عن ابتسامة حميمة..! "يا له من صباح جميل" .

ولدى الحبيب..

وصلتنى رسالتك.. ولم تزعجنى أكثر من المعتاد.. فلا هذا النوع من القرارات، ولا سرعة التشبث بما يبدو لك حقيقيا جدا.. هى أمور أندهش لها، وبالمناسبة، وجدت فى أوراقى القديمة رسالة مشابهة على نحو ما.. كنت قد أرسلتها لأبى - رحمه الله - فى زمن أبعد من ذاكرتى.. ولا يعنى هذا أى شبه بينى وبينك وبين أبى، فهو لم يحفل برد ما، وكان أكثر حكمة منى إذ ترك لنفسه حرية التأمل من بعيد وقد أثقلته تجربة هائلة بحيث تعلم حبس العواطف التى لا طائل من ورائها، وتوفير مشقة إلقاء نصائح لا يستمع إليها أحد.. وعندما أصررت على السفر.. ابتلع غضبه.. وقال إنى " لن أرى هنالك أكثر مما رأيت ".. واحتجت لثلاثين عاما لأفهم المعنى الآخر لعبارة تبدو غائمة ومتعالية! وعندما هِمْت عشقا بتلك الفتاة الفرنسية - التى هى أمك وصممت على الزواج، سألت والدى فلم يحر جوابا.. وهوالذى قضى ردحا طويلا يتسكع فى بلاد الله الواسعة، وقال لى فى حديث آخر.. "إن هناك دائما نوعا من الناس يقضى جل حياته فى بحث ما يقع خارج دائرة

ارتباطاته العائلية ويستمتع آنذاك بمتع عظيمة، ونوعا آخر..
يكافح جل حياته ليخرج رأسه قليلا خارج دائرة ارتباطاته
العائلية.. فيفشل فى معظم الأحوال وقد ينجح لبعض الوقت ـ
وكل منهما مكافح على نحو ما ويبدو أن أمامك الخيار الثانى
ولا مفر" ولم أحب تعاليه وكبره آنذاك، ولاشك عندى الآن.. أنه
تأكد من خطئه فيما بعد.. لأننى كنت أتحسس ميوله الصامتة
وأفعل عكسها تماما لأثبت نفسى على نحو طفولى، كنت أشعر
أنه يتسلّى بآرائى عوضا عن أن يحملها محمل الجد، واعترف
لى ذات يوم، وقد شرب أكثر من المعتاد، بأنه قد فقدحماسه
لكل شئ منذ زمن طويل.. وأن آراءه، مهما بدت عليه من
الحكمة، لن تكون نافعة لى أبدا.. ويحسن أن أحتفظ برعونة
الحماس والعناد الأجوف.. وتمزقنى الحياة بأنيابها من أن
أتمسك بحكمة باردة.. محنطة ـ أسوأ ما فيها ـ أنها وليدة يأس
حارق! وأنه من النعم العظمى ـ التى يعرف المرء قيمتها فيما
بعد ـ أن ما من حكمة هى وليدة يأس خاص.. يمكن نقلها أو
تصديقها أبدا، وأن ما نظنه تخبطا وإضاعة للوقت.. وحماقات
كثيرة كان ينبغى تجنبها.. هى من الأصالة والقوة والحيوية
بحيث لا ندم يعادل تخطيها أو تجنبها أبدا، وكان يتركنى فى
كل حدث مهما بلغت شدته.. أعانى من حيرة عظمى.. مكتفيا
بحركة خفيفة من يده مشيرا إلى الأنف، كان يردد : " اختبر

أنفك إن حدسه لا يخطئ " ولم أسمعه يعلن ندمه على قرار اتخذه أبدا عدا مرة واحدة، مع صديق كان يراه كل عام أو عدة أعوام، وهو الوحيد الذى ظل يعرفه منذ أيام التلمذة، قال إنه ندم حقا على تطليق زوجته الأولى، وكانت تدرس معه فى لندن، لأنه سمعها - بمحض صدفة غير مقصودة أبدا - تقول "إنها تفضل الرجل الشرقى.. وإن الفارق الحقيقى بين الأوروبى وذلك ذى الشعر الأجعد.. ليس فى أى كفاءة فسيولوجية أعلى كما يظنون.. بل فى قدرتهم المدهشة على الثرثرة بعد المضاجعة، ليسوا فى كآبة ذلك الأوروبى، الذى يفعل كل شئ بنفس الجهامة والجدية.. ويقيس كلماته وفق نظام صارم " وكان يظنها قدفضلته على صديقها الأوروبى لأسباب أكثر جوهرية، واحتاج عشرين عاما ليعرف أنها كانت أكثر صدقا وبراءة من كثيرات عرفهن.. غير مستثن أمى ذاتها من ذلك! وقد أضجرته سلبيتها القاتلة.. وانصياعها الزائف.. وتقديسها لأكثر صفات زوجها سلبية وتفاهة، وأنها وافتها المنية دون أن يعرف ما بداخلها قط، وكم كان يتعذب لذلك!، وكان يردد أن النساء كالرجال تماما يتشابهن فى أكثر الأمور الفسيولوجية جوهرية فى أغلبهن، والندرة قاسم مشترك، وأن اعتداله ساعده على النفور المبكر من أولئك اللائى هن أكثر برودة أو شبقية من سواهن، لأن كليهما يتميزن بعقوق جسدى.. وتشتيت

للروح لا مفر منه يجعلهن أقل إنسانية.. وأبعد عن مدارك الشفافية.. ويعانين من ضغوط عصبية شديدة تعوق البذل والتصالح الروحى مع الآخرين..! كانت مشكلته لا تكمن فى أحكامه، بل فى ميله الدائم لإصدار أحكام من هذا النوع.. وتأمله الداخلى الذى لا ينقطع.. وقد أورثه ذلك مزاجا خاصا.. كان أقرب إلى الكآبة فى أيامه الأخيرة.. إذ اكتشف أنه لم يكن على سجيته قط، بل ربما لم يعرف معنى السجية أبدا، كان وجدانه معاقا على نحو ما، كان يشعر أن واجبه تجاه مملكة العقل أثقل وأهم واجباته.. ويبدى احتقارا لكل النوازع التلقائية عوضا عن حسده الداخلى وعجزه عن الممارسة..، ويشبه نفسه دائما.. بذلك الرجل الذى يجلس على شاطئ البحر مرتديا حلة رسمية.. محتقرا المستحمين.. لأنهم يتركون البلل والرمل يسيئان إلى مظهرهم.. متمددين تحت الشمس.. تاركين حواسهم وأعضاءهم تتمدد وتسخن من حرارة الشبق والشمس.. يجأرون بمتعتهم ككلاب تتضاجع فى الهواء الطلق!، وبينما كان يتيه فخامة وجدية - كان يتحرق شوقا للقفز عاريا.. خلوا من كل الاختراعات الأكثر حماقة وزيفا وتحضرا، وعندما نشأ بيننا جسر ودود فى عاميه الأخيرين.. كان لا يلبث أن يبتسم بعد موجات المصارحة العنيفة.. ويردد: أنه ربما يعرف الآن فقط معنى اللذة الخارقة لإنجاب طفل ذكى.. وهى أن

تعرى نفسك أمامه فى اللحظة المناسبة.. دون خوف.. وتجده أكثر مخلوقات الأرض تفهما، ومأساة ذلك هى حدوثه فى أيامك الأخيرة!! وبعد أن تزول عنده بقايا حواجز الحياء الموروث عنك.. أو شحنة التنافس الغامض التى تكبل مشاعر البنوة والأبوة معا!.، كنت أعرف أن درجات من حلمه تتحقق بفضل خداع النفس الذى لم يبرأ إنسان منه قط وهى متعة تأمل الذات فى مرايا الآخر على نحو ما.. رغم علمه الصارم أن ما من مطابقة أو مشابهة ممكنة أبدا.. وإن حدثت.. فما من أحد رآها أو فطن إلى أن يراها فى لحظة مناسبة..!

وها أنت ذا ترانى الآن لا أخفى سعادتى ـ على نحو طفولى ـ بطلبك مشورتى.. فى أقصى ما يخصك.. وما لا سبيل لى لأعلمه.. ناهيك.. عن ثقتى أن قرارك قد اتخذ منذ زمن أسبق من خطابك بشكل مؤكد.. وإن كنت لا أريد أن أحرمك متعة أن تفعل شيئا لأنك تعرف أنى ما أردت ذلك يوما..!، ليس لأن ما أردته لك كان له أى معنى أو فائدة.. وقد أضعت حياتى ـ كما يحدث عادة ـ أصعد سلالم متشابهة.. أتشبث فيها بأهداف مملة كالعمل والواجب والثراء المادى بزعم صنع ضمانات ما لمستقبل عائلتى الصغيرة.. لا أعرف ـ الآن ـ يقينا إن كان ثمة أمان حقيقى.. أم هو مجرد وهم آخر يضاف إلى سلسلة التطمينات الزائفة.. التى نكره عقولنا على تصديقها.. وأميل

صادقا الآن إلى الاعتقاد أن ذلك كله - لم يكن وليد أى تضحية أبوية من أى نوع، فأنا بعيد عن هذه التهمة، وأمقت مدعيها وما زلت - كان مجرد سعيى الخاص نحو خلاص فردى أجده أكثر أخلاقية من سواه ومن ثم أكثر تفاهة مما كان يتعين على عمله.. واختيارا لأيسر السبل المتاحة على نحو ما، أو لعله إشباع للكسل الذهنى الذى أدمننى عادات بائسة، فالسعى المحموم للعمل والثراء.. هو محض ذريعة جاهزة للعجز عن عمل شيء أفضل، أو العجز زيادة عن مواجهة الفعل الحقيقى.. الذى لم أسمح لنفسى بالنظر له وجها لوجه مواصلا سلسلة التخفى اللانهائية والبعد عن المرام الأصعب منالا! ولتعلم أن ذلك الحمق لم أنجح فى نسيانه قط "ماذا كان يتعين على عمله" ؟.. ما إن أطرح سؤالا كهذا.. حتى أنخرط فى دوامة اكتئاب مهومة لا أخرج منها إلا بمزيد من الغوص فى ذات اللجج، ولزوجتى.. فضل لا ينسى - إن جاز أن يسمى فضلا - ألا تترك رأسى نهبا لأمثال هذه "الأسئلة الرعناء" .."والمتاهات الطفولية" على حد قولها!.. إن أحد أسرارى الصغيرة.. التى احتجت وقتا طويلا.. كى أكتشفها.. فضلا عن البوح بها لك.. رغم ما تبدو عليه من طرافة لأول وهلة.. هى علاقتى الغريبة بطقوس العزاء.. وأنت تعلم مدى استثقالى لكل الواجبات الاجتماعية.. والعزاء كان يبدو أشدها إرهاقا.. غير أنى فى كل

المرات التى أكرهتنى الظروف على هذا الأداء الغريب.. وبعد اختراق حاجز الرهبة الدائمة من ترديد عبارات السلوى التى لا معنى لها، وما أن أجلس مع المعزين.. محروما من أى تعارف أو تواصل مع الحاضرين مستمعا إلى التلاوة.. كنت أجد ذهنى يمرح بحرية مخيفة.. يسبح وحده فى سماء رحبة.. هادئا.. متخلصا من كل عبء.. شعور ما بالخروج أو بنفثة من رياح جديدة.(لا أدرى إن كان لذلك علاقة بخروج إنسان ما من عالمنا المثقل بإرهاقات شتى.. لا أظن ذلك!) متأملا الآخرين.. وقد بدا عليهم التركيز أو ادعاء التركيز فى حزن ما.. ليس شخصيا.. فالكل يعلم أنه لا حق له فى حزن على نهاية ما من أكثر النهايات منطقية وجنونا.. ويرى المصير نفسه أمامه.. ما لم يكن متمرسا على الأداء الطقسى لهذه المناسبات.. فإنه يتحرر كذلك ولا يرهب حريته أمام مثير عميق الدلالة.. يقف على نحو ما بين السخرية والفجيعة! فلا يجد ربما للمرة الأولى ثمة غضاضة فى أن يفتش فى ذهنه قليلا عن مناطق جديدة.. لم تجرفها بعد حمى الموات الذهنى والخمول العتيد.. فيخرج خليطا عجيبا من الخوف العميق والاستهانة الساخرة.. وربما لا يعوق هذه الحرية المحدودة إلا أن تكون على موعد كئيب ما.. من جملة الشواغل البائسة.. كزيارة أو عمل أو دعوة على العشاء، كنت أجد سعادة فى التعازى.. رغم أن ذلك يبدو

مضحكا.. وتذكرت آنذاك.. سعادة أبى الأشد غرابة.. حين كان يهرب فى الحمام من لغط العائلة.. وكلما تعاظم إرهاقه وعذابه.. كان زمن قضاء الحاجة عنده يطرد فى الامتداد! ولم يكن يفسد يومه شيء قدر وجود من يتعجله.. كان ينجز أعقد المشاكل ويجد حلولا سهلة لم يكن تخطر له على بال.. فى ساعة طقس الحمام.. ووقر عندى أنه يعانى من "إمساك" مزمن! إلا أنى فطنت إلى خباثة هذا الادعاء فهو يستدعى "إمساكا" ما.. عصبيا على الأرجح ليجلس - منفردا بنفسه - ساعة الصباح الباكر.. وساعة أخرى قبل النوم.. كان لا يجد راحته إلا هناك.. وأمى التى بمرور الزمن فطنت إلى ذلك كانت لا تثير أمامه أى مشكلة وتؤجل كل مطالبها الملحة.. لحين خروجه.. من ساعة المناجاة.. وكان مزاجه يبدو رائقا.. ودودا.. حانيا.. مستعدا لامتصاص شحنات جديدة من نواقيس الصداع اليومى!.. بينما أنا.. وقد واجهت المشاكل ذاتها فى زمن آخر، بحثت دوما عن وظائف من النوع الذى يتيح لى سفرا طول الوقت، فكنت أجوب بلاد العالم.. ولا أنكر ما خبرته من متعة فى بداية الأمر.. فكانت لى عينا طفل.. وذاكرة شبقة.. حتى اقترب زمن القلق الحتمى، فكان على بالمقابل أن أتكلم عوض أن أسمع وأرى طول الوقت.. وفكرت فى هجر العمل الصحفى.. ذلك الذى أكتشف تفاهته ولا جدواه يوما بعد يوم..

فصحوت ذات يوم على مفاجأة بالغة الطرافة.. اكتشفت أنه لم
يعد لى مكان!.. ليس هناك دائرة هروب خاصة.. فلم تكن
المطارات والفنادق إلا أماكن محايدة.. عابرة.. ذات ترددات
طاردة، وما أبغى قوله خاص وشخصى.. احتاج لمرسى
صميمى.. وكل بقعة أعرفها كانت لى اسما فحسب، وأكثر
الأماكن طردا لى كان منزلنا ذاته العامر بكل المسرات العائلية..
والحنو.. والدفء.. والأمان الذى أشتاق للعودة إليه دوما.. كان
مشحونا بعادات الألفة.. وعبق الأمومة العميق النفاذ.. بحيث
لا يسمح بأى رائحة أخرى!! وكان لرغبتى فى الكتابة عبق
رائحة مغايرة.. تولد نفورا ما.. اضطرابا فى الوسط المحيط..
كنت غير مرغوب فيّ بوصفى كذلك.. إذ لم تكن الكتابة من
وظائفى المعتمدة.. تذكرت المكاتب الأمريكية الحديثة المجهزة
بالكومبيوتر.. المكيفة.. المعدة فقط لعمل لا شخصى.. غير
المسموح لك فيها بعادات الفراغ والتأمل.. فكلها زجاج شفاف
يسمح للرئيس بمراقبة موظفيه طول الوقت.. حتى لو لم تره
أنت.. فأزيز أدوات التصوير والطباعة.. وحركات السعاة دخولا
وخروجا.. تترك لك هامشا للعمل وحده فى مكان لا شخصى..
وإذا كتبت سطرا واحدا بعيدا عن ضرورات العمل.. كان يقرأ
على كل الشاشات الأخرى بتكة زر يستطيعها كل إنسان.. ولم
يكن لأى واحد شجاعة تحمل فضيحة! كان منزلنا الهادىء

البديع.. يحمل إلى ذات الشعور.. جدران زجاجية.. مخترقة محاصرة.. وهواء ممغنط بعبق أنثوى لاذع.. الأم.. الزوجة.. الأطفال.. وكل مسعى لتحقيق خصوصية ما هو أنانية.. وجلافة غير مسموح بها.. نوع من المروق الجاحد! كان هوسى الأعظم البحث عن مكان ما.. شخصى.. آمن من العواصف العاتية.. وأمام إنهاك عنيف أعلنت يأسى السريع.. وانتحارى فى العمل المادى الأكثر ربحا "وعقلانية" وعادت البسمة للوجوه الراضية المصممة.. وسمعت ألحانا مطربة.. "يا له من أب حقيقى.. زوج مثالى" حتى لحظات الشكوى النادرة لم يعد مسموحا بها! ولا يعنى هذا أنى كنت ضعيفا فى معركة حامية!.. وقد تقاعست عن خوضها أصلا.. ولم يمكن اتهامهم بخطيئة كونهم كذلك.. فذلك حماقة ما بعدها حماقة.. لقد استسلمت لكسلى أنا.. وليس لضغوط الجماعة العاتية.. ببساطة.. لقد جبنت.. ولم أعد أقوى على مخاطرة ما.. وفضلت السباحة على شاطئ معروف.. عوضا عن التوغل فى أعماق مجهولة وجديدة لقد أرعبتنى فكرة الوحدة المحتملة. والبرودة والحرمان من الفردوس العائلى الدافئ.. والمداعبات المسلية!.. واحتفظت بعادة واحدة كنت أعتز بها فيما مضى.. وإن بطريقة مختلفة وهى "القراءة" وأكتشف الآن عدم جدواها.. بعد أن بلغت حدا مضحكا يقف عند فاعلية دنيا

لعضلة العين التى تجرى على أسطر مطبوعة - بصرف النظر عن محتواها - بنفس السرعة والتلقائية.. والحمية الفسيولوجية.. ترى كل شئ ولا ترى شيئا.. ولا يمكن التمييز بين أى كتاب أو أى موضوع.. فسيان إذا كان كتابا فلسفيا أو رواية بوليسية أو إثارة جنسية أو بحثا سيكولوجيا أو كتابا فى الطبخ! استمتعت بعلاقة الترابط المنطقى.. بل الشكلى داخل كل صفحة أو فصل على حدة.. ونبذت كل ما يخص المعنى.. وانتصرت المقدرة المنفصلة لعضلة العين على ملكوت العقل الذى استغرق فى تأمل نظافته الكاملة من أى ميكروبات ضارة أو معارف مؤذية.. وإزاء أى تمردات محتملة.. اكتشفت دواء ناجحا.. الشراب كل ليلة.. وطعمت الملل المكتبى والعائلى بأصداف من السهرات المرحة ودعوات العشاء.. التى برعت فى إعدادها.. وأصبحت أمزج بين متعتى القراءة والشرب معا بمهارة نادرة.. وإذا ذهبت الأسطر أبعد من العينين فى محاولة للتسلل الفاشل لملكوت الذهن، كنت أواجهها بمدفعية ثقيلة من جرعات خمر قوية وطعام شهى.. ووجدت دائما رهطا جاهزا من الندماء فى السمر والشرب والعشاء.. ولم أبخل على نفسى بمروقات جنسية متباعدة بهدف كسر الملل.. تعيد للطبق العائلى جدة الطعم القديم الحنون!.. بكلمة كنت أبا وزوجا رائعا.. وبفضل حكمة أمك وتدليلها العميق كانت سعادتنا محل

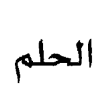
حسد دائم!.. فهى لم تتبرم يوما إزاء منغصاتى التافهة، ومروقاتى الجنسية التى تصلها أخبارها فى حينها لم تكن أكثر من مزعجات تافهة.. كانت تثق فى عودتى إلى جادة الصواب بطمأنينة خارقة!.. كانت أحكم من أن تثور لذلك ولو تلميحا.. وتعالت.. لأنها تعلم خطورة الصدام.. وتدرك بغريزة عبقرية أنى لن أخرج أبعد من مدار الجذب.. وأنها بقبولها لتمرداتى التافهة كانت تقطع الطريق على تمرد أعمق لا يمكن تقدير مداه!.. كان لها ذهن آية فى الواقعية، وعبقريتها كانت سياسية بالفطرة.. تعرف كيف تتعالى وتحتقر وتتسامح.. بقدر محسوب.. وتنسج فى صبر آلاف الخيوط الرقيقة اللا مرئية التى تستعيد أعتى قوى تمردى الداخلى وتدجنها بمهارة فائقة، كانت تؤمن بالمهارة المطلقة، وتحتقر الانفعال الطائش تجد الكرامة فى القوة.. هزمتنى وجعلتنى أستمتع بهزيمتى، وأعد نفسى محظوظا بكل المقاييس!! وتستمع إلى فى لحظات السكر - أفتخر بخطاياى التافهة، وكأن الأمر لا يعنيها.. كأنها تشاهد ملهاة تلفزيونية حدثت فى مكان وزمان آخرين.. أبطالها من الكومبارس الرديء والممثلين الأكثر ضعة! مختفية فى تعاليها وأنفتها الأرستقراطية.. مغدقة علينا جميعا - بغفرانها وتدليلها - أمومة طاغية..! أرانى قد أطلت وأفضت، وأشكر لك خطابك مجددا.. الذى ترانى بدلا من إجابته.. انتهزت فرصة مواتية

لأخلق مستمعا وحيدا.. لثرثرة عجوز يعانى من وحدة قاتلة.. هى كل ما بقى لى.. بعد أنهار لا تنتهى من الخمر، وشعور غامض بالذنب.. لأنى أسبب لكم ولنفسى قدرا دائما من الإزعاج والانزعاج الحتمى.. الذى يرتبط زواله.. بزوالى أنا الشخصى.. الذى ليس بوسعى أن أثق بحدوثه أبدا..!

وختاما.. اغفر لى مشاعر حبى لكم التى لم تخل من الأنانية قط..،

والدك

(....)


الحلم

(١)

قبل أن يتم السادسة.. رأته الأم فى نومها يغرق.. يرتشق جسده بطحالب سوداء وأسماك هائمة.. فركت عينيها، ألقت عليه شالها الصوفى المضمخ بالعطر.. بقيت ساهرة حتى الصباح.

(٢)

فى الليل توصد كل المخارج بأقفال ثقيلة.. فى النهار لا يلعب أبعد من باحة المنزل الصغيرة.. تحرسه ثلاث نساء قويات قدمن من أقصى الصعيد يذقن طعامه وشرابه قبله.. يحكين له مئات الحكايات عن عالم الخارج الملىء بالسحرة والشياطين وأنهار تبتلع البشر أحياء.

(٣)

الأم.. لم تعد ترى غير وجهه.. أرعبتها كل رغبة فى

النوم.. ذهب المال.. وهن الجسد.. بقيت العظام وحدها تجالد الموت تتصالب رغم ألم أشد من الموت ، وعندما استقر الظلام فى العينين كانت تشمّه كل صباح.. تتحسس ملابسه، تبقيه عارى القدمين.. حتى لا يفكر فى الهرب.

(٤)

نظر الابن وجه فتاة من بنات الخال.. فذهب نومه.. شمت العجوز رائحة القلق فى الجسد الفتى.. قال لها "أتزوج وأذهب" اجتاح قلبها رعب عاصف ! بعد يومين قالت العجوز.."بل تتزوج وتبقى" !.

(٥)

فى صباح العرس.. قالت العجوز للزوج الصغيرة "أفنيت نفسى من أجله ثلاثين عاما والآن جاء دورك رأيت مصيره فى حلمى.. لم يكذب لى حلم قط!.

(٦)

قالت الزوج للفتى "شيئان عدنى ألا تفعلهما أبداً الخروج

بدونى.. و ألاَّ تقـرب النهـر" غضـب.. فبكت قالت له "إن دمـوع أمك مـا زالت تبلل خدى" بلع غضـبـه فى صـمت.. أسـلم العقل للحلم بعالم لم يره قط!.

(٧)

فى الفجر.. نهض يحاول الخروج.. دون عودة، قَبْل الباب.. ثقل جسده.. ارتعشت قدماه اللتان لم تحسنا المشى قط.. عاد إلى سـرير زوجه ولم يبرد مكانه بعد.. ابتسـمت وعـاودت النوم فى صمت!

(٨)

قـال " إن لم أخـرج اليوم..مت " فـى الخـارج هـواء لم أشـمـه قط.. آه لو أرشف من ماء النهر !.

(٩)

قـالت الزوج.. " جسدى هواؤك ونهـرك " لفت عليـه سـاقـاً وذراعـاً، نشق الفـتى عطر الأنثى وخدر الأنثى.. ضـاجع زوجـه مـرتين.. فى الثـالثـة كـان يلهث دون جـدوى " لا يحـزنك هذا "،

قالت لـه.. وقبل أن يفيق مـن لهاثه المكتـوم.. كان جسـدها يرتفع ويهبط ضاغطاً جسـده.. خال أنه يسبح فى نهر عظيـم.. العرق السـاخن على وجهـه وأنفـه.. فتح فـاه بحثـاً عن هـواء، ألقمـتـه جبلاً صغيراً من الصهد الندىّ!

(١٠)

فى الفجر.. نهضت العجوز فزعة تبكى: "يا ويلاه فى تلك الليلة تحقق حلمى "!



(١)

رأى فيما يرى النائم أنه يطارد فتاة .. دائمة التحول .. وكلما صنعت لنفسها جسماً جديداً أنثى .. صنع لنفسه من ذات النوع ذكرا..

(٢)

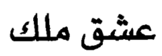
عندما لم يعد لها طاقة على الهرب والتحول .. وقفت وقد استعادت صورتها الأولى.. ، وهو كحصان لاهث ـ كف عن الطراد، وأخذ رغم اشتهائه ـ يتأنى في اقترابه .. وتشممه لجسدها ، الذى فاجأه بأن تحول إلى محارة قديمة تفتتت تحت قدميه !

(٣)

سمع لها أنينا يدمى القلوب ... لم يطق ذنبه فسقط مغشيا عليه !.

(٤)

فى الصباح، لم تجد محاولات إنهاضه ، قال الطبيب إنها غيبوبة لا يجد لها سبباً عضوياً .. فقط حافظوا على الجسد من عوامل التحلل التى تنشأ بطول الرقاد .


عشق ملك

(١)

كانت تلك اللحظة التي أغلق فيها عينيه - طربا بهذا الغناء الساحر - كافية لعبور رؤية اخترقت رأسه.. دفعت به إلى زمن آخر لا حدود لشطآنه..، كان يجتاز بحاراً هائجة.. يصارع تنانين ووحوشا شرسة، ويرتاد - فى الآن نفسه - صحراء قاحلة.. رياحها تعشى بصره.. وتجرح حلقه بسفوف حمراء لاهبة، لم ير فيها أثرا لحيوان أو نبات، لكنها دفعته إلى مسار محدد.. انتهى إلى غابة سوداء، أشجارها العنكبوتية تلتف حول بعضها البعض كحيات متضاجعة.. مغلقة بأوراقها العملاقة.. وفروعها الكثيفة كل منفذ للضوء، ذات رطوبة لزجة.. ونتن خانق، وهو - وحده - بسيفه يشق طريقا.. أو يزيح الأشجار عن طريق قديم مطمور.. يشعر أنه طرقه مراراً، وما تزال آثاره عالقة به.. وفجأة يرى ضوءا خابيا ينبعث من كرة زجاجية، عندما اقترب وجدها قبة تعلو قصرا له أسوار شاهقة وبوابات مترسة، وكأنما اكتسبت عيناه قدرة على النفاذ عبر الأسوار والحجرات لترى ما

بداخل القبة، حيث ترقد عذراء، على سرير مرصع بالأحجار الكريمة.. والجواهر النادرة، لها أجمل وجه رأته عين إنسان، وعيناها كلؤلؤتين تنيران المكان، لم يزعجه شىء سوى شحوب الوجه.. وذلك الحزن الغامض الذى يسكن العينين، وسبعة فرسان أشداء يحرسون الفتاة ليل نهار.

(٢)

قال الوزير - بعد أن قلب الأمر فى رأسه عدة أيام: مولاى.. إن عندك من الجوارى والمحظيات ما يغنيك عن المخاطرة..، وماذا سيقول الناس عن مليكهم الذى لم تجذبه شهوة قط!.. فأجاب الملك: لقد قررت تحقيق رؤيتى.. لن يوقفنى شىء، سأرحل فجراً، منفرداً، كما فى الحلم، أعد لى مركباً قوياً.. وناقة.. وسلاح!

(٣)

أعد له الوزير كل شىء.. ولم ينس الأحجبة والتمائم وسلحه بسيف مرصود لا يُهزم حامله أبداً.. ودرع لا يمكن اختراقه.. وناقة شديدة البأس وهودج.. ومؤن تكفى ثلاثين رجلاً..

(٤)

ظل فى البحر أربعين يوماً.. مرت كحلم.. لم يبذل جهداً يُذكر، الريح هى التى صنعت مساره، كانت الحيتان والتنانين الطامعة تولى هاربة حال التماع سيفه المرصود، وذات ليلة، أفاق فجراً.. وجد مركبه راسية بهدوء على شاطئ رملى.. تحيطه صحراء شاسعة، أفرغ أحمال مركبه.. أعتلى الناقة ومضى!

(٥)

فى الصحراء لا وجود للزمن.. شمس صحراء لاهبة أو ليل حالك.. وتدويم الريح وعصفه هو النشيد الدائم، أدرك سر نبالة الناقة، أسر لها بمقصده.. فانطلقت فى الصحراء كمن يخرج من سجن كئيب إلى الشسوع والرحابة.

(٦)

لمعت الغابة من بعيد كعملة معدنية سوداء.. انتشرت فى الجو رائحة عطانة مياه آسنة، والريح التى لم تكف عن التدويم.. خمدت أنفاسها فجأة.. برزت حواف مظلة واسعة من سحاب قاتم يكسر لظى الشمس، تباطأت الناقة.. لوت

إليه عنقها.. رأى الشموخ.. والتوسل فى العينين..، فهم أنها سوف تسير به إلى جهنم، لو أصر..، ترجل عنها.. ربت على عنقها.. أخذ سلاحه.. ومضى!

(٧)

كما رآها فى حلمه كانت الغابة، رائحة أبخرتها البشعة فاقت تخيله.. اخترقت أذنه أنات بشرية.. وصراخ طيور سوداء.. وفحيح، شق بسيفه ممراً يتجه للعمق، كان الأمر شاقاً فى بادئ الأمر، وبعد ساعة.. أخذت الأشجار تنحنى من تلقائها.. وتفر الثعابين من تحت قدميه، أدرك أنه وجد الطريق!

(٨)

شعر أن الطريق يصعد به على نتوءات تشبه سلالم مطمورة.. كان القصر أمامه كحيوان خرافى راقد فى أعلى التل، لم يميز ضوء البوابة من مكانه، ضرب البوابة بسيفه فانشقت كجلد حيوان سميك، اندفع فى ممرات ودهاليز صاعدة، سمع خطوات الفرسان.. فأيقن باقترابه، كانوا ستة فرسان بارعين.. لكن خبرته وسلاحه ضمنا له النصر،

وأذهله أنه كلما طعن أحدهم وانطرح أرضاً.. تحول إلى حجر من الجرانيت....

(٩)

استيقظت الفتاة لدى وصوله.. حاولت النهوض، أقعدها الضعف الشديد خلع أسلحته.. واقترب منها،، بعد لحظة كانا يذوبان معاً فى قبلة عميقة، كأنه لم يقبل امرأة فى حياته.. حين هم برفع رأسه أخيراً، كانت كفاها خلف عنقه تتحولان إلى طوق من الصلب.. كان يريد أن يسترد أنفاسه.. أن يسأل.. لكن فمها لم يترك فمه، كانت روحه تنسل من جسده.. ويختفى شحوب الفتاة شيئاً فشيئاً.. وتبرق عيناها بفرح طفل قد تحقق حلمه!..

(١٠)

تجمدت ساقاه أولاً.. ثم امتد التحول إلى باقى جسده، كان مندهشاً.. لأنه رغم تحوله مازال يستطيع أن يسمع ويرى، قالت الفتاة وهى تدور بكفيها حول جسد الفارس الفتى، كنت أود لو استمتع بك أكثر.. لا يهم، تكفينى سعادتك أنت!.. وأنت واقف هنا فى معية حراستى!..

وهو.. الذى احتـاج لعـدة أعـوام لفـهم مـا حـدث له..
واعتياده، بقى مندهشاً، - ليس مما حدث - بل.. من أنه لم
يشعر بالأسف على ذلك أبداً!..



العودة إلى الوطن

فى غفوة مفاجئة بين الساعة الخامسة والسابعة صباحاً (افضل أوقات العمل لدى الكاتب الكولومبى الفذ جارسيا ماركيز) اختفت بغتة من أمامه زرقة البحر المشع بشمس الجنوب الإسبانى الذى اختاره كموطن ثان له بعد طول ترحال ورأى نفسه يركب سيارة مكشوفة فارهة تسير به عبر شوارع كولومبيا الحبيبة يشم روائح الموز المقلى والتوابل الاستوائية.. والنسوة والفتيات يلوحن له من نوافذ منازلهن المطلة على الموكب الذى يسير بطيئاً بسبب تزاحم الجمهور، كان يشعر بنشوة موجعة.. حتى أن عرق المجاميع المحتشدة تحت شمس كاوية كان يأتيه بروائح مسكرة ممتزجة بالكحول والثوم والمقالى.. شعر أنه يطير فوق سحب ملونة ورياح صاخبة لها عطور مدوخة.

(٢)

عندما استيقظ وجد من يناوله ظرفاً به دعوة من وزير

الثقافة "يسعدنا أن تشرفنا بزيارة للبلاد التى طالما اشتاقت لأن ترى ابنها الروائى العبقرى بين أهله وشعبه الذى يكن له أعمق المشاعر.. وأبلغ مودة واحترام.. ومن نافل القول أن هذا التشريف الذى نطمح إليه.. إنما يحفزنا أن نوفر لنجاحه كل سبل الحماية.. مهما تكلف ذلك من مجهودات.. لا تقارن فى الحقيقة بما ينتظرنا من خلال تشريفك لنا.. ولقائك مع كوكبة من المثقفين والكتاب والساسة الذين يتطلعون إلى لقائك بشوق جارف.. توقيع / وزير الثقافة (ن./ن)" شعر أن حلمه كان إلهاما و نبوءة.. وأن هذه الرحلة قد تبعث بعض الحيوية فى رواية لا تريد أن تكتمل..وقد وقف فى فصلها الأخير حيث يقف البطل والمناضل السياسى القديم.. متردداً.. بين العودة لمكان يشعر خارجه بأنه ضائع.. وبين أى تهور لتحقيق هذه العودة قد يكلفه حياته.. حتى أنه كان يشعر بشكل غامض أن هناك رابطة سرية بين الاشتياق.. والموت..!.

(٣)

أبدت زوجته تردداً.. لم تخبره صراحة بمدى التطير الذى تشعر به.. فلطالما اتهمها بالبحث عن مخاوف مضحكة من أشياء تبدو مفرطة العادية.. أصر فى داخله أن يذهب

فى هذه الرحلة وحده.. مما فاقم من عذابها وتشاؤمها، لكنها فى الوقت نفسه - كانت لا تتخيل أبداً - وهى ليست كولومبية!، أن تخوض مغامرة احتمال الموت فى بلد غريب، حاولت أن تجعله يفكر قليلاً فى الأسباب الحقيقية التى تجعل وزيراً فى حكومة مضعضعة.. تحمى نفسها بالكاد.. ومحاطة بأعداء من كل ناحية (فرق الإرهاب المسلح، عصابات المخدرات وجيوشها المدربة، المرتشين والعملاء داخل قوات الأمن والمخابرات والجيش، وقوى أخرى تعمل لجهات أجنبية تتحين الفرصة للإجهاز على الحكومة فى أية لحظة!).. هذه الحكومة كيف ستستفيد من زيارة كاتب شهير.. وهى لم تبد فى أية لحظة أقل احترام للمثقفين والفنانين على اطلاقهم... قال إنه يعرف عن ظروفها أكثر من هذا.. و أنها ربما تسعى لكسب بعض الشعبية على حسابه وتشغل معارضيها بعض الوقت بمناسبة هذه الزيارة... لكن حلمه الذى رآه قبل وصول الرسالة يجعل للزيارة مغزى أعمق.. ربما كان قدرياً.. ويشعر من ثم أنه إذا اعتذر عن الذهاب.. سيكتنفه عذاب داخلى.. وقد لا يسامح نفسه إذا ترك فرصة كهذه - تحقق له حلماً قديماً - تضيع بسبب مخاوف احتمالية قد يتعرض لها أى إنسان فى أى

مكان آخر.. إن ذلك ببساطة قد يسقم روحه.. وقد لا يكمل روايته أبداً.

(٤)

فى اليوم التالى، تلفنت امرأة مجهولة وأصرت على مقابلة الكاتب لأمر هام لا يحتمل التأخير.. وعندما قوبل طلبها بالرفض.. اضطرت أن تعلن هدف المقابلة.. إنه أمر يتعلق بسلامة الكاتب وزيارته المفترضة إلى كولومبيا! فى المساء.. قالت له إن هناك أكثر من خمس خطط مختلفة وضعت لاغتياله.. وإن إحدى الفرق أرسلت تطلب من الولايات المتحدة سلاحاً من نوع خاص من أسلحة القناصة.. يصيب الهدف بدقة شديدة من مسافة أكثر من ٩٠٠ مترا، وبها جهاز تصويب بالأشعة لا يخطئ ليلاً أو نهاراً.. و إنها متصلة بكاميرا وجهاز كمبيوتر بحيث يمكن توجيهها ناحية الهدف بمعلومات مشفرة عبر شبكة توصيلات خاصة.. وتمكن القناص من إطلاقها عبر إشارة إليكترونية.. وإن المكلفين باغتياله لا يكرهونه فى الحقيقة، لكنهم يوجهون ضربة إلى نظام الأمن على وجه الخصوص، لأن بعض فرقه الخاصة قد قتلت ثلاثة من أهم الكوادر فى جماعتهم.. باختصار نصحته بإلغاء السفر كلية..

وأضافت أنها لولا تأكدها من هذه المعلومات لما تكلفت مشقة السفر إلى إسبانيا وتعريض نفسها لمخاطر جسيمة.

(٥)

رغم ذلك شعر ماركيز أن الأمر كله قد يكون خدعة مدبرة لمنعه من السفر.. ولم يستبعد بسبب مخاوف زوجته.. أن يكون لها ضلع فى هذه الحيلة.. وهى الوحيدة التى تعرف خوفه المزمن من مسائل التعقيد التقنى.. حتى أنه قد يراه نوعاً من السحر الأسود فى هذا الزمان ..لكن خطاباً آخر وصله من الحكومة الكولومبية جعله يرجح أقوال المرأة المنذرة.. (علمنا أن هناك مخاطر محتملة قد تهدد حياتك وأن هناك خططاً قد وضعت لذلك ـ ومن حسن الحظ أننا اخترقنا شبكة اتصالات هذه الجماعة ووضعنا خططا وقائية كثيرة.. واقلها.. أننا سنسير فى ٣ أو ٤ مواكب مشابهة للموكب الرسمى، ولن يعرف المتآمرون أبدا أيها سيكون الموكب الحقيقى.. كما لا يستبعد أن نقبض عليهم جميعا قبل وصولك إذ انهم سيضطرون للحضور للعاصمة لتنفيذ الخطة.. وزيادة فى الاحتراس صنعنا لك قميصا خاصا يقى من الرصاص.. وأيضا باروكة من معدن خفيف لا يخترقه الرصاص وعليها شعر مستعار من ألياف

خاصة.. وتماثل فى الشكل شعرك تماما.. وكل المطلوب أن ترتديها بعض الوقت فى منزلك حتى تعتادها قليلا.. دون أن تخبر أى إنسان بأمرها " حتى زوجتك" ونأسف لهذا التشدد فى الاحتياط.. الذى قد لا تحتاجه أبدا كما تعلم.. و أطيب تمنياتنا برحلة طيبة.) لم يخبر زوجته بفحوى الرسالة.. ليس اتباعا لنصيحتهم ولكن ليتفادى عاصفة اعتراضها وقلقها المدمر. مادام قد قرر خوض التجربة.. فلم تفزعه كل هذه التفاصيل.. وحتى حالة الفزع التى تهيمن على كولومبيا من زمن شعر أن من حقه أن يختبرها بنفسه.. أن يلمس رائحة الخوف اللزج فى هوائها الاستوائى.. ربما كان ذلك ما يحتاجه بالضبط.. وقضى وقته يخطط للمقابلات التى تنتظره و الأماكن التى سيصر على زيارتها.. و أنعش روحه أن الباروكة المعدنية كانت خفيفة فعلا.. ويمكن التحكم فى اتساعها من الداخل بحيث تطابقت مع حجم رأسه تماما..عدا أنها كانت تسد أذنيه قليلا فصنع بها ثقبين صغيرين كى لا تعوق وصول الأصوات إليه.. وتعمد أن يرتديها أمام زوجته فلم تلاحظ أى تغير فقد كانت الأذنان من الجلد المطاط تطابقان حجم أذنيه تماما.. أعجبه ذلك الإتقان الشديد فى الصنعة.. وقام بتغطية الثقبين بالشعر المستعار.كان الصوت يصله عبرها مضغوطا

قليلا.. لكنه افضل كثيرا من الشعور بالصمم الذى لا يطاق والعزلة الكريهة..

(٦)

قبل السفر بساعات.. خطر له أن افضل شىء أن يسافر وحده دون أى حاشية رسمية.. كفرد عادى.. مجهول ويتسلل بين المواطنين.. بينما كل العيون ستتجه إلى الموكب الرسمى.. مما قد يتيح له التجول حرا فى المقاهى والبارات التى يحبها.. أن ذلك سيبتعد به عن مخاوف الاغتيال لكنه إزاء أى صدفة محتملة.. قد يجد من يتعرف عليه ويقومون بخطفه حينئذ.. سيكون الخطف تجربة أخرى (وكان أثناء ذلك يزمع كتابة رواية عن حوادث الاختطاف).. ومهما كان عذاب هذه التجربة.. إلا أنها ستكفل له التعرف عن قرب على نوعية المتآمرين وتزوده بمادة غنية لا بأس بها تنفعه فيما بعد.. لكن الوقت الباقى لم يسمح له بتغيير الخطط الموضوعة.. بعد ساعة سيكون جالسا فى الطائرة محاطا بوفد رسمى سيصحبه فى كل خطواته ولن تتركه مجموعة الحراسة لحظة واحدة.

(٧)

لدى وصـــوله إلى ارض الوطن كـان المطار يشـبـه قلعـة حـصار.. مسـاحـات متـرامـية من ارض خـاليـة.. إلا من بعض الهيـاكل القـديمة لطائرات باليـة.. و أرتال من السيارات تنتظر قـرب المهبط.،، نشـروا البسـاط الوردى على سلم الطائرة وبدأ يهـبط مـحـاطا من كل النواحى برجـال الحـراسـة والقنـاصين المدربين.. لمح وزير الثـقـافـة يلوح له أسـفل السلم اسـتـقـبله بابتسـامة عـريضـة.. لم يكن هـناك بالطبع أى جمـهور، أسـر له مرافقه انه لن يركب سيارة الوزير بل سيستقل طائرة مروحية خاصـة.. وان الموكب الرسمى سيـحضـر بدونه للأسف.. فهـذا جـزء من عمليات التمويه التى تتغيـر من لحظة لأخرى مـخافة اختراق الجواسيس.. المنتشرين فى كل مكان..

(٨)

بعد طقوس المصـافحة وتبادل كلمات الترحيب كما يليق برؤساء الدول.. استقل سيارة مصفحة لتسير به المائة متر حيث الطائرة المروحيـة فى مـرآب خاص بعيـدا عن عيـون المتطفلين.. وعند وصوله للمرآب.. غادر السيارة.. واضطر أن

يحنى هامته قليلا بدافع غريزى كى يتفادى حركة المروحة.. وضع ساقه على درجة الصعود.. وقبل أن يصعد بقدمه الأخرى.. شعر بارتطام عنيف برأسه ودوى هائل كأن رأسه قد حشر فى جرس كنيسة عتيقة.. شعر بألم هائل فى الأذنين اكثر من ألم رأسه.. جعله الارتطام ينكفئ غريزيا على ارض الطائرة التى أقلعت على الفور وتركت للحراس التعامل مع الحارس الخائن.. الذى اخترقت جسده اكثر من ستين طلقة على الفور..،

(٩)

ظل فى الطائرة ممددا على حاشية، واثنان من المرافقين يتوليان ترطيب رأسه التى تورمت قليلا. برغم ألم أذنيه تمكن من التقاط سيل الاعتذارات المتدفق من مرافقيه، أدرك بصعوبة أن الزيارة قد ألغيت للأسف وأنه سينتقل إلى طائرة أخرى تعيده إلى أسبانيا.. كما أدرك من خلال الموقف كله أن بلاده قد نكبت بمرض الرشوة وإمكانية شراء أى إنسان بمبالغ هائلة حتى لو كان من رجال الحرس المخضرمين.شعر بالزهو انه ما زال قادرا على الإدراك.. وان الحياة الحافلة القديمة لم تنتزع منه بعد، وان" كولومبيا " التى تخصه يمكنه استحضارها

كيفما يشاء.. وان هذه الكولومبيا الزاهنة والتعيسة لا يعرفها أبدا.. وربما لا يحب أن يعرفها.

(١٠)

كان الخبر قد سبقه إلى المنزل.. استطاع اختراق عشرات الصحفيين والمصورين الذين هرعوا إلى منتجعه.. وجد زوجته فى حالة إغماء.. عندما أفاقت لم تصدق انه قد نجا.. أخذت تتحسس جسده بحثا عن أى رضوض أوجروح وهى لا تكف عن الكلام.. الذى لم يميز منه شيئا حتى استقرا على مائدة الطعام وتبادلا أنخاب عودته سالما.. ساعده الحديث على التركيز على ملامح وانفعالات زوجته التى وجدها اكثر جمالا من أى وقت مضى.. لم يحاول أن يجهد نفسه بقراءة شفتيها..وشكر ربه انه لم يسمع صوت بكائها ونشيجها الذى لم يكن يطيقه أبدا.. ثم دلف إلى السرير متمنيا أن يحظى بنوم عميق بعد يوم حافل.. احتضنته بقوة وكورت نفسها فى صدره كطفل ينتشى بدفء تخيل لحظة انه لن يلقاه بعد ذلك أبدا.!

(١١)

قبل نومه حاول أن يتذكر أين وضع الباروكة المعدنية

المنبعجة بسبب الطلق النارى.. لابد ان يكون قد خلعها فى الحمام.. كان يريد أن يخفيها فور استيقاظه حتى لا تقع عليها عينا زوجته فتندفع فى لومه من جديد ثم تذكر صممه الحديث الذى لم يلاحظه أحد فى أثناء الهرج والانفعال خلال عودته.. وبدأ رغم انفه يتخيل نفسه مع هذه العاهة اللعينة والمتاعب المحتملة التى ستجرها عليه. وتوقع ألا يشفى منها أبدا.. لابد أن يعتاد وضعه الجديد.. وابتسم إذ اكتشف أن ذلك قد يعفيه من ضرورة الرد على المحادثات التليفونية التى تقاطع يومه.. وانه ربما بفضلها قد لا يجد حرجا فى الاعتذار عن عشرات المقابلات التلفزيونية التى يمقتها وتجدها زوجته مسلية.. سيكون بذلك قد امتلك أسلحة جديدة يدعم بها عزلته التى أصبحت مخترقة كل يوم وربما يتيح له الصمم بالذات نوعا من التركيز الأعلى واكتشاف مناطق جديدة لم يألف الخوض فيها.. سيصبح نقيض بورخيس الكاتب الضرير الذى يرى العالم من خلال أذنيه.. حمد الله انه ليس موسيقيا كبيتهوفن وكيف لموسيقى أن يتحمل ذلك!! ويكون عليه أن يؤلف موسيقاه من الذاكرة وحدها! يالها من تجربة تستعصى على الوصف، سيحرمه الصمم من صوت زوجته الذى يتلون غضبا.. ومودة وحنانا عدة مرات فى اليوم الواحد، كانت نبرة صوتها التى

يحـاول تذكـرها الآن.. تنتقل إلى عـالم الذكـريات البـعـيـدة.. تتـحـول ـ حـتى غطيطهـا المزعج ـ إلى نوسـتـالجـيـا جـمـيـلة ومشـتهـاة.. بفضل حدة ذاكرته الحسية ربما اكتسب الإحساس بعالم جديد.. بخوض مياه عميقة.. سيرى الشفاه التى تتحرك وستكتسب عيناه نفاذية وقدرات على رؤية تفاصيل لم يعبأ بها من قبل.. والأهم انه سيكتب روايات حافلة.. ألم يكن أحد أهم أبطال " فـوكنر " فى " الصـخب والعنف " أبلهـا.. وعبـر حواس هذا الأبله.. ولج فوكنر إلى عـالم مـدهش ومشـاعر خـارقـة..! (لن يكون الصـمم حاجـزا أو مأسـاة ثقيلة.. لمن يمتلك هـذا الـقدر من الحسـاسـيـة والموهبـة وإرادة الكتابة.. بل على العكس تماما أن عـوالم جـديدة.. ورؤى سـحـرية تنتظر ولوجـه إليـهـا..) ثم سقط فى نوم عميق.

(١٢)

فى الفجر نهض ماركيز.. تسلل ببطء حتى لا يوقظ زوجته أحكم إغـلاق غـرفـة المكتب.. ممتلئا بالحـمـاس للعمل وشـاعـرا بقـدرة مـبـاغـتـة على إنهـاء روايتـه.. ولاح له انه قد وجـد حـلا لعـودة بطله (السـيـاسى المنفى) إلى بلاده.. وعلى شـاشـة الكومـبـيـوتر راح يسـتـعـرض مـا قد وصل إليـه قبل ذلك اليـوم

اللعين.. قــرأ " ذهـب ( ) إلى الولايات المتــحــدة أولا.. ومن هناك.. عبر صديق قديم اتصل بأفراد شبكة تهريب الكوكايين المحكمة.. واتفق معهم أن يضمنوا عودته سالما ومحميا من قبل رجال (أسكوبار) على أن يحمل لهم حقائب خاصة ممتلئة بأسلحة جديدة وأشياء أخرى ليس له أن يسأل عنها.. سيركب معه أحد أعوانهم الثقاة وسيتولى الحديث مع كل النقاط الحدودية وسيتركه رجال الجمارك يعبر دون توقف.. وفى الطريق.. اندهش بعض حرس الجمارك.. كانت هناك حقيبة اكبر من المعتاد.. أصر أحد الضباط على فتحها.. ولم يبد صديقه أى اعتراض أو تذمّر.. هكذا ينبغى أن تبدو الأمور! فالجميع مرتشون وكل شىء سيمضى بالطريق المرسوم عندما فتحت الحقيبة ونظر الضابط بداخلها.. أسر الضابط لرفيقة بشىء تقلص له وجهه.. هذا لم يكن متفقا عليه! ذهب مع الضابط إلى صندوق العربة.. ونظرا بداخله وجدا هناك رجلا نائما مكبلا ومكمما.. وقد غميت عيناه وسدت أذناه بالشمع كى لا يسمع شيئا.. لم يكن هذا الرجل غير" جارسيا ماركيز " نفسه.. يبدو وجهه شاحبا كميت وقد حقن بمخدر ثقيل......!

(١٣)

لا يتذكر انه كتب هذه الأسطر فى أى وقت.. ما الذى زج

باسمه فى رواية لا علاقة له بشخوصها ولا بأحداثها..! أيكون ذلك نوعا من النبؤة المتخفية.. تعكس أشواقه اللاواعية لخوض مغامرة كاملة.. والعودة لوطنه من طريق آخر لا علاقة له بالمواكب والأنماط الاحتفالية التى يكرهها! كان عليه ببساطة أن يعيد كتابة هذه الفقرات.. بطريقة لا يزج بنفسه داخلها على هذا النحو المضحك.. وهنا شعر بشخص يندفع داخلا حجرة المكتب.. كانت زوجته تحمل له القهوة وبعض الفاكهة.. اندهش لاستيقاظها مبكرا على غير عادتها.. قالت : لم استطع النوم جيدا.. سمعتك تصدر أصواتاً خلال نومك.. وما تلك الباروكة المعدنية التى تخاف عليها هل أصبحت تكتب الروايات فى نومك أيضا! لم يرد و أذهله انه استطاع سماع كلماتها بوضوح كامل! أضافت : بالمناسبة.. لا تنس أن ترسل ردك اليوم على دعوة وزير الثقافة الكولومبى.. كم يكون جميلا أن أرى البلاد التى تفتنك وتلهمك كل هذه الروايات الرائعة!.

الهوة

(١)

جالسا كان أو لعله نائم.. كانت الرمال و الحصى تحيط به من كل جانب.. تستطيع رؤيته كثؤلول أسود بين تلال الرمال الصفراء.. والصحراء اللامتناهية.. وضع بجانبه إبريقا من الماء و تلا صغيرا من الحصى.. يظل يجمعه ويرصه فى أشكال غريبة طول الليل. ينام قرب الفجر.. ما إن تشرق الشمس.. يصحو ليمارس عمله!.

(٢)

كان يجلس منتصبا بجذعه فقط. لا يقف أبدا.. ساقاه متدليتان فى هوة سحيقة.. و بصبر بالغ يبدأ بقذف الأحجار و الحصى التى جمعها فى الليلة الفائته.. يفعل ذلك بنظام صارم.. لا يلقى بواحدة الا اذا سمع صوت ارتطام الأخرى التى سبقتها، عندما ينفد الحصى.. ينهض متثاقلا يجمع الحصى مجددا، يملأ أبريقه و يعاود الجلوس فى مكانه.. يعاود رمى الحصى فى الحفرة ذاتها.. فى المساء ينام مكانه..

بعد أن يجمع حصى جديداً يكفى للغد..أولبعض سويعات من صباح الغد.

(٣)

أخذت تراقبه من بعيد.. ثم دفعها الفضول لأن تقترب منه.. كانت لا تدرك ماذا يفعل بالضبط، ما الذى يبقيه فى هذا المكان المتوحد!، عندما اقتربت منه هالها قبحه.. جلد وجهه المنتفخ بفعل الحرارة و الهجير.. نظر اليها كمن اعتاد وجودها بجانبه أو كمن لا يرى أى شئ سوى الصحراء..حاولت أن تسأله "ماذا يفعل بالضبط".. لم تجرؤ على ذلك أول الأمر..أخذت تراقبه مسحورة من توحده و إصراره على رمى الحصى ثم جمعه مجددا!!، قبل أن ينفد الحصى.. وجدت نفسها تجمع له الحصى من جديد.. تضعه بجواره فى صمت.. ابتسم لها.. فقد أراحته من جهد القيام من مكانه الذى بدا أنه يحبه!.

(٤)

بعد ثلاثة أيام.. وجدت نفسها أوشكت على الإغماء.. ليس بسبب الحر و الأرق و جمع الحصى.. أو لأنها لم تعد تأكل أى

شىء.. وتكتفى مثله بالماء! بل من الضجر الرهيب الذى يخنق المكان بأذرع عنكبوتية.. قالت: هل تود أن تردم هذه الحفرة بالحصي!، نظر تجاهها.. أو بالأحرى تجاه صوتها وأومأ بجانبه بعد أن جمعت له عدة تلال من الحصى و الأحجار التى لها نفس الحجم تقريبا.. تركت جسدها - مثله تماما - يغوص فى الرمل رويدا.. وتدلت ساقاها على الحافة، كان الرمل.. بعد مسافة معينة يصبح أكثر رطوبة ونداوة.. وحنانا،، رددت لنفسها، ورغم أن الجبل المجاور يلقى بظله عليهما أغلب ساعات النهار.. إلا أن سخونة الهواء كانت لاذعة، قربت وجهها من الرجل أكثر فى جسارة مفاجئة. اكتشفت أنه أعمي!، كان يحلق فى الشمس دون أن تطرف له عين، و يعرف عدد الخطوات اللازمة لإحضار الماء من البئر القريبة، كان فمه مشققا فقد اعتاد الصمت لفترات طويلة، فكرت (ربما كان يوفى نذرا ما!): لكن وجودها هكذا بجانبه كان أمراً لا يمكن فهمه، لماذا تشاركه فى لعبة حمقاء، ترص الحصى، تلقى له فى الهوة واحدة.. فواحدة.. كأنما تمسك بإيقاع خاص، أو تصنع وحدات زمنية متتابعة.. إن ذلك كله عبث و خواء لا معنى له، فكرت أنها يجب أن تترك هذا المكان، أن تبتعد قدر ما تستطيع، لكن.. أين تذهب؟.. ولمن؟، تذكرت أن حياتها ليست

أكثر من هذه الهوة ذاتها!.. ليس هناك مكان ولا إنسان تحن إليه بشكل خاص، لعل ذلك ما أتى بها إلى هنا دون وعى، ربما لذلك مكثت، دفنت نصفها الأسفل فى الرمل.. لتساعد ذلك الأعمى.. أو بالأحرى لتساعد نفسها.. أو ربما بسبب وهم ما أو مرض قديم!.. تتوقع منه مساعدة ما!.. وكيف لأعمى منقطع عن كل شئ ويشبه صخرة مفتتة أو شجرة جافة خاوية أن يساعد أحدا! ربما كان الشئ الوحيد الذى جذبها إلى هنا ليس الأعمى بل تلك الهوة العجيبة، الهوة التى لا يمكن لأى أحد كان.. ولا لملايين الحصى أن تملأها أبدا.. كان صوت إرتطام الحصى بالقاع يستغرق وقتا، ذلك الوقت رغم تكراره.. كان الشئ الوحيد الذى له معنى، كل حصاة تستغرق زمنا مختلفا حسب حجمها وثقلها والطريقة التى تقذف بها!، كان الأعمى لا يقذف الحصاة بالضبط.. بل يتركها تنسل من بين أصابعه.. وأذنه تتابع لحظة الارتطام، ولا يغير موقع جلوسه أبدا، وساقاه متدليتان على الحافة تماما.. سألته: (لماذا تفضل هذا الوضع بالذات؟).. لم يرد، لكنها أدركت أنه ربما يخشى أن يأتيه الموت فى أى لحظة. يريد أن يضمن سقوطه فى الهوة.. كانت الهوة تشبه مقبرة رهيبة.. فاغرة فاها.. استنتجت ذلك، كان الأعمى يخشى أن يموت فى الصحراء وتأكل جثمانه

الطيور والضباع.. اختار أن يموت و يدفن بطريقة تخصه.. لا يريد أن يختار له أحد ميتته بالذات.. لأن أحداً لم يجرؤ أن يقترب من حياته أبدا.. وقد وجد البقعة المثالية لذلك..!

(٥)

قالت له: أعلم أنك لم تبادلنى كلمة واحدة ولن تفعل، لكنى أصبحت أدرك الكثير عنك، كأنى أعرفك منذ زمن، أنا أحترم ذلك الكبرياء الوحشى الذى أتى بك إلى هنا! كأنك تعففت عن طلب أى مساعدة من أى كائن تعرف.. لطالما تمنيت أنا ذلك، لكن سذاجتى وضعفى جعلانى أطلب مساعدة كثير من البشر.. كنت أظن أن البشر قد وجدوا بالذات لهذا السبب!!، لكى يعين أحدهم الأخر، وعندما أدركت استحالة ذلك.. صرت أحلم بنفسى كهوة سحيقة لا تجد من يحاول أو يقدر أن يملأها أبدا، لا.. لن يملأ أحد هذه الهوة.. ولا غيرها.. لأنها ليست قابلة للامتلاء أبدا.. الجميع أشاحوا بوجوههم عنها.. إنها ليست الهوة التى أمامك.. بقدر ما هى فى داخلك.. إنها بداخلى أيضا.. نحن إذن متماثلان على نحو فريد، غير أنك كما أحدس الآن.. لست أعمى بالضبط، لقد سملت عينيك بنفسك حتى لا ترى وهما جديدا، إن الأعمى.. ينظر للداخل

فقط.. يا له من حل مدهش لقتل الوهم.. وذبح الألم الذى يسببه تكراره.. أن ترى مكانا او إنسانا ما تظنه أفضل ممن سبقه.. لو كنت مبصرا.. كانت الأوهام كفيلة بقتلك حيا، إن احترامك لنفسك وتوحدك مع كرامتك قد أنقذاك من عذابات وأوهام ضائعة.. عندما أراك كأننى أرى نفسى.. حتى عندما استيقظ ليلا وأجدك غافيا بجانبى أندهش وأشعر أنى أحلم.. ربما لست أكثر من حلم ولم يكن لك وجود إلا فى مخيلتى.. ربما ليس هناك حتى هذه الحفرة ولا هذا الحصى الذى جرح كفى دون أن أسأل نفسى.. لماذا أجمعه مساءً وألقيه نهارا، ربما كان ذلك كله محض كابوس!، هل باستطاعتك أن تقول لى أى شيء.. كلمة واحدة تؤكد لى أنك حقا كائن حى!؟ ولست وهما آخر يضاف إلى سلسلة أوهامى اللانهائية!، هل باستطاعتك أن تقول لى لماذا تكتفى بالحصى ولا تحاول ملء الحفرة بالرمال.. بإمكانك أن تجرفها.. الرمال حولنا فى كل مكان.. سيكون ذلك أسرع وأسهل.. أن نكوم الرمل.. ثم ندفعه إلى الحفرة... ما رأيك؟.. أم تريد أن يكون الحصى هو شاهد قبر؟.. أثر خاص!!، سامحنى إذا كنت لا افهم سر تمسكك او قل تمسك البشر.. بأن يكون لهم شاهد قبر ما! أن يهتموا بما بعد الموت! الا يكفى الموت ضياعا لكل شيء.. وبم يفيد شاهد

قبر، بم يفيدك أن تعرف.. أقصد أن يعرف أحد ما أنك.. ولست غيرك.. هو المدفون هنا!؟، أليس ذلك نوعاً من البحث عن رابطة ما.. عن علاقة مع الآخرين رغم يأسك منهم.. ذلك اليأس الحارق واللانهائى الذى أتى بك الى هذه الهوة السحيقة!.

(٦)

لم يجب الرجل.. لكن وجهه تجهم.. ارتعشت فكاه.وبدا لحظة أن دموعا تبلل ذقنه! واصلت: أيعقل بعد كل هذا اليأس من العالم أن تكون متردداً!! أن تخاف الموت، أن تخاف أن تترك جسدك يهوى كأنه حجر.. وتنسى كل شىء.. هذه الحرارة المؤلمة.. الوحشة.. الجوع.. الجفاف.. الوحدة!، أليس ذلك أشد قسوة من ترك نفسك تهوى هناك فحسب.. كأنك تنزلق فى ماء دافيء.. يفجر جسدك بحنان حقيقى، أنا واثقة الآن أن جوف الحفرة ليس مخيفا كما تتخيل.. لن تشعر هناك بهذا الجفاف المؤلم.. كأنك تكفر عن ذنب جسيم تكفيرا لا ينتهى!، إن بالداخل رطوبة حانية لا تصل إليها شمس لافحة ولا رياح ولا سفوف الرمل الحارق.. إنها تشبه العودة للرحم بعد رحلة ضياع وتشرد كئيب!، أشعر أن بداخلها.. وبداخلها

فقط ربما يستعيد أمثالنا بعض ما فقد منا، نعيد امتلاك أنفسنا، كرامتنا الضائعة بين الضباع والعقبان وآكلى الجيف، ان حنينا مخيفا يجذبنى للداخل.. لأن أترك نفسى أهوى كحصاة.. كحجر، ما رأيك؟ لماذا لا تريد أن تقول كلمة واحدة.. إنك حتى لا تومىء برأسك.. لماذا تستدير بعينيك الى الناحية الأخرى؟!، أترانى عدت أستجدى حنانا.. مشاركة إنسانية مستحيلة ؟! وهما جديدا؟!، حسنا تفعل أن تظل صامتا، أنت ببساطة (لا أحد).. أنت هو أنا!.. أو لعلك وهمى الأخير الذى يثير فى داخلى ذات الهواجس القديمة.. والهلاوس.. وعذابات استجداء حنان مستحيل، حسنا تفعل بصمتك.. وصرامة وقبح وجهك.. أليس الوهم قبيحا أيضا.. وجهّما.. ومخادعا!!، لكنى لن أصدع رأسك أكثر مما فعلت.. إننى فقط أشكرك.. حتى لو كنت وهما أو حلما أو سرابا أو شبحا.. فقد أنرت لى الطريق، طريق السكينة التى عذبنى ضياعها منذ سنين و سنين، إنها ببساطة هنا.. تحت قدمى، وأنت - ايا ما تكون - ستكون آخر أوهامى، أعدك بذلك، سأتركك وأهبط.. سأهبط انا اولا - ليس لأنى أشجع منك - بل لأنى لم أعد اقوى على تحمل هذا اللفح المضنى والجوع والوهن.. ولأنى أكثر منك ترددا، وأخشى أن أبتلى بوهم آخر أو بخديعة جديدة تطيل أمد عذابى،

فمازالت لى تلك العيون المخادعة التى لم أجرؤ على سملها مثلك! ولن أجرؤ على ذلك أبدا .. أنا أعرف نفسى، وأشكر لك هذه الأيام الثلاثة التى قضيتها معك، وإذا كنت وهما أو شبحا فلا بأس، إذا كنت إنسانا حقيقيا .. فأنا أحسد قوتك على تحمل ذلك العذاب المتصل.. وأحسد صبرك الأزلى وطاقتك اللانهائية، وإن كنت لا أعرف بالضبط إذا ما كانت ميزة أم لعنة!.. وأشكر صبرك على سماع تلك الترهات التى قلتها لك، لعلها منحتك زمنا إنسانيا .. نوعا ما من التواصل،.. لا .. لا داعى لأن تبكى الآن.. يمكنك أن تفعل ذلك بعد ذهابى، وتترك بعض الدموع لى.. أقصد لحفرتى ومكان سكينتى.. التى عرفتها بفضلك (حتى فى الموت نحتاج إلى مرشد ما!) ولى طلب أخير، أن تهيل بعض الرمل.. أريد أن اشعر بشيء يعزلنى عن ارتطام الحصى والصخور.. قليل من الرمل فقط.. إن ساقى تشعران به رطبا وحانيا، لا أحتمل فكرة أن يقذفنى أحدهم بالحصى حتى بعد موتى.. رغم أنى لن أشعر بشيء كما تعلم.. لكنها أمنيتى.. رغبتى الأخيرة كما يقولون، فهل تعد بذلك! (أومأ برأسه موافقا) حسنا .. لقد منحتنى راحة حقيقية، تنهدت.. سحبت قدرا كبيرا من الهواء إلى رئتيها، قالت: "وداعا .. كم هو جميل أن تجد إنسانا جديرا بأن

تودعه!" .. دفعت الحافة الرملية من تحت قدميها .. شعرت بجسدها ينزلق ببطء.. بهدوء شديد فى أول الأمر.. ثم هوت، تخيلت أنها تسمع صوت ارتطام جسدها، كان آخر صوت تسمعه، ثم ساد صمت.. وظلام عميق!.

حكاية الأسطى محمود السواق والثلاث بنات

﴿"إن عـزيز قـال.. وصـاحت على الجـوارى وقـالت لهن اركبن عليـه.. وأمـرتهن أن يربطن رجلى بالحـبال فـفعلن ذلك ثم قـامت من عندى، وركـبت طاجناً من النحاس على النار.. وصبت فيه سيرجاً وقلّتْ فيه جبناً وأنا غائب عن الدنيا.

ثم جـاءت عندى وحلّت لبـاسى وربطت مـحـاشـمـى بحـبل ونـاولتـه الجاريتين وقالت لهما: جروا الحبل، فجرتاه فصرت من شدة الألم فى دنيا غير هذه الدنيا ثم رفعت يدها وقطعت ذكرى بموس وبقيت مثل المرأة.. ثم كوت موضع القطع وكبسته بذرور وأنا مغمى علىّ، فلما أفقت كان الدم قد انقطع فـأسـقتنى قدحـاً من الشـراب ثم قـالت لى رح الآن (...)، وإذهب فى هذه الساعة لمن تشتهى وأنا ما كان لى عندك سوى ما قطعته.. والآن ما بقى لى فيك رغبة ولا حاجة لى بك..."﴾

ص ٢٨٧، ٢٨٨ – جـ ١ – ألف ليلة – ط . صـبـيح (حكاية الملك عمـر النعمان وولديه شركان وضوء المكان).

لا يدهشنى أن يتغيب محمود شهراً أو حتى شهرين. أما أن يختفى عاماً كاملاً ثم يجدوا السيارة التاكسى التى يعمل عليها خالية على طريق المعادى، فذلك كفيل بتفجير قلق عارم فى حارتنا بل فى حينا كله... أتراه قد قُتل و أُخفيت جثته. أو أُلقى القبض عليه فى قضية سياسية، و قد دأب دونما هدف واضح على ترك ذقنه تنمو فى الآونة الأخيرة... لم تجد جهود أهله و لا تحريات مخبرى القسم، حتى ركن الجميع إلى اليأس، و كاد وجوده أن يُنسى أو أن ينمحى من ذاكرتنا محواً، و استعوض أهله الله فيه. رجل واحد ظل واثقاً أن محمود على قيد الحياة و أنه راجع للحارة لا محالة...هو الشيخ زيدان، شيخ الزاوية فى حارتنا، و كان محمود من مريديه وخلصائه... حتى كان ذات صباح، فوجئت بالشيخ زيدان يستدعينى على عجل ليسلمنى خطاباً مغلقاً من محمود، كُتب على غلافه: "يصل ويسلم إلى الشيخ زيدان ومنه إلى الأخ مسعد البقال". لم أتمالك نفسى وفضضت المظروف لأقرأه على الشيخ، لكنه أشار لى بالتوقف، و قال:

أنه قد خصك بخطابه من دون الناس و لو أراد لأرسل لى أنا. فاقرأه وحدك ، وأخبرنى بما تراه هاماً ليطمئن قلبى.

(١)

كان محمود أقرب أصدقائى إلى قلبى: ولدنا فى حارة واحدة ذهبنا إلى نفس المدرسة، ونفس المقهى. و لنا نفس الاهتمام بكل شيء. وشاءت الظروف أن نترك المدرسة فى عام واحد قبل شهور من موعد امتحان الثانوية العامة، تركتها أنا بسبب محل البقالة المتواضع الذى شغُر بموت والدي، و تركها محمود ليعمل على سيارة أجرة اشتراها والده - بالتقسيط - من مكافأة تعويضه عن فقد ساقه فى حادثة بالمصنع. ظل محمود لفترة طويلة يأتينى كل مساء لنشرب زجاجتين من البيرة و نأكل الجبن والمخلل. يحكى لى كل ما مر به فى يومه، و أنا أستمع إليه فى حسد لا أخفيه. فلقد كان، بقدرته على الحكّى و روحه المرحة، يطوف بى عالماً شاسعاً بالغ الثراء، بينما أنا هنا أتجرع ملل و رتابة يوم ثقيل لا ينتهى بين صفوف المعلبات و رائحة الجبن والمخلل و المعسل. أشعر أن العمر سينقضى فى زنزانة صنعها لى المرحوم والدى بتدبير مُحكم، لا يستريح رأسى ساعة واحدة من مناهدة أهل الحارة عيالاً و كباراً ومغالطاتهم التى لا تنتهى. فكان محمود يسخر من

شكواى ويحسد جلوسى مطمئناً بعيداً عن حوادث الطرق و مشاكل المرور و رخامة الزبائن و فضائح العرب فى صيف القاهرة اللعين.

(٢)

كان آخر عهدى به هو عمله مع ثرى عربى يستأجر سيارته لمدة شهر قابل للتمديد. يعطيه حوالى ٧٠ جنيهاً فى اليوم، غير نثريات الأكل و الإقامة إن ذهبا خارج القاهرة، إضافة لهدايا متنوعة من الويسكى والسجائر. عمل يسير متقطع كأنه فى إجازة حقيقية. وقبل اختفائه بيوم واحد جاء إليّ مبكراً على غير عادته، و فى عينيه هم وغضب شديدان، و أخبرنى أنه سيترك ذلك العجوز المريبد. فقد طلب منه ـ نصف مازح ـ أن يأتيه بشاب وسيم يبيت معه ليلة نظير عمولة مجزية! فقال أنه سائق و ليس قوّاداً. فتراجع العجوز، واعتذر له بلباقة ثم أخبره أنه سيسافر إلى أوروبا للعلاج، وطلب منه أن يستمر فى العمل لدى أهل بيته القاطنين فى حى المعادى، فهم لا يرتاحون مثله للفنادق. وللمرة الأولى يُفاجأ محمود أن للرجل زوجة وابنة كبقية خلق الله. و أذكر أننى نصحته ألا يتعجل ترك خدمة الرجل العجوز، طالما سيحافظ على كرامته و لن يضطر لأعمال

مهينة. ومادام العجوز مسافراً فقد حُلَّت المشكلة من تلقاء نفسها، و عليه التوجه للعمل مع أسرة المعادى. فبدا على محمود أنه ارتاح إلى رأيى، وذهب.

(٣)

لم تمنعنى لهفتى من أن أعرج على غرزة لمعى لأشترى نصف قرش حشيش يكون مؤنسى فيما ينتظرنى من الخطاب. وجدت بداخله صورة ملونة لمحمود يبدو فيها أكبر سناً و أضخم وجهاً وكأنه كَبُرَ عشر سنوات مرة واحدة. و شرعت فى قراءة الخطاب:

[أخى مسعد،

أرجو ألا تُعلم أهلى بأمر خطابى هذا، و لا أى مخلوق غير الشيخ زيدان – الذى لم أجسر أن أحكى له مباشرة ـ و بعد أن تقرأ الخطاب ستدرك أسبابى.

أما بعد،

بعد أن تركتك تلك الليلة، بكرت فى الذهاب إلى فيللا المعادى. استقبلتنى خادم على درجة عالية من الجمال. أجلستنى فى صالون فخم وأحضرت لى قهوة. و تركتنى أنتظر قرابة الساعة. ثم هلت صاحبة الدار. امرأة فى الأربعين لها

جسد يميل إلى الامتلاء، و فم شهوانى وعينان لا يمكن أن تحدق فيهما دون أن تثور فى رأسك الهواجس. أعلمتها بأمرى، ولم تتركنى أسرد تفاصيل أجرى أو شروط عملى حسب اتفاقى مع زوجها، قالت دع ذلك الآن. وأمرت بإفطار شهى، ثم بقهوة أخرى. وكلما حدثتها عن العمل تقول "الواجب قبل كل شيء!" فى الحقيقة أخجلنى تواضعها و كرمها الشديد. ثم نادت على فتاة لا تزيد عن العشرين عاماً بحال، قالت أنها ابنة زوجها... لها حسن صاحبة الدار وأكثر، وكلما خطرت تثنّى جذعها و اهتزت أردافها كراقصة مبدعة، وحيتنى بلطف و أدب لم أعهدهما من قبل. و كلما فرغ فنجانى أتتنى بآخر مع نُقّل و حلوى لم أذق مثلها فى حياتى، و أنا مرتاح فى جو الصالون الوثير المكيف أشعر أنى ضيف عزيز و لست سائقاً يعمل بأجر. وحين أدركت أنهن لسن بحاجة لخدمتى اليوم هممت بالانصراف فألححن على أن أمكث للغداء. اعتذرت بأدب، و اتفقنا أن آتيهن فى صباح الغد. وقبل ذهابى وضعت السيدة مظروفاً فى يدى بأجر اليوم "سبعين جنيهاً" علاوة على "ثلاثين أخرى بقشيشاً عن عمل لم أنجزه! اعترضت على ذلك فقالت إنها تدفع ثمن وقتى و لا شأن لى إن ركبن سيارتى أو لم يفعلن، هكذا أوصاهما الأب قبل سفره.

نزلتُ تصحبنى الخادم إلى الباب، و فى الطريق غمزت لى بطرفها ففعلت مثلها فاشارت أن أتبعها إلى المطبخ، فدخلت خلفها. فإذا بهـــا تقبلنى فى فمى قبلة شديدة أدارت رأسى، ثم سحبتنى للخارج دون كلمة وهى تطلق تنهيدة تنهدّ لها الجبال! أقول لك الحق لم أجد فى نفسى رغبة بالعودة إلى الحارة، فجلست فى السيارة أفكر أين أذهب الآن؟! وإذا بشاب أنيق يهمس لى "طنطا .. واللى تطلبه، و ترجّعنى فى نفس اليوم". ترددت لحظة، فأضاف "٣٥٠ جنيهاً، ماشي؟!" قلت له "إركب، توكلنا على الله" ذهبت متفائلاً بوجهه السمح، و أمضيت الليل هناك أطوف فى الشوارع و القهاوي، و أشدد على محطات الصيانة والغسيل و التشحيم أن يجعلن من سيارتى عروسا حقيقية. و قبل الفجر عدت بالشاب إلى القاهرة، وأنا فى أشد ما يكون من التعب. أمضيت سويعات أدخن البوري، وأنا متلهف على بدء العمل. و لما أصبح الوقت قرابة التاسعة، ذهبت للفيللا و ساقاى لا تكادان تحملانى. طرقت الباب، متمنياً أن يمضى اليوم كسالفه. فتحت لى الخادم و هى ترمينى بنظرات الوله، وقبلتنى قبلةً أشد من قبلة الأمس. ثم تركتنى فى الصالون ريثما تعد القهوة، و أنا ذاهل عما حولى، أترجرج بين الحلم و اليقظة، و ربما أكون غفوت

قليلاً... انعش أنفى، و أيقظنى شذى عطر شديد. فقد هلّت السيدة و الفتاة ترتديان نفس الرداء الأبيض الشفيف، لا تفرق بينهما العين إلا إذا استقرت على الصدر. فقد تركت الفتاة نهديها بلا مشدّ، يطفران سُمرةً متوردةً من تحت الرداء، و يرتجّان بحركتها لا يهدءان أبداً. بينما يظهر مشدّ السيدة الأزرق قابضاً على امتلاء ثدييها الوثيرين. وقبل أن تحييانى اندفعت السيدة توبخ الخادم توبيخاً شديداً على قلة حيائها، إذ كيف لم تحضر لى الإفطار و الحلوى قبل القهوة. حاولت أن أوضح أننى قد أفطرت فعلاً لأدفع الظلم عن الفتاة المسكينة، فأسكتتنى السيدة و أقسمت عليّ أن أشاركهما إفطارهما المتواضع. و سرعان ما أُعدّت المائدة، فأكلت معهما كأنى لم آكل منذ دهور. و كلما توقفت تحلفان عليّ أن آكل من هذا وأن أتذوق ذاك، و أنا فى غاية الحرج و الخجل من هذه المعاملة. فأقسمت بينى و بين نفسى أن أخبرهما بسر ذلك العجوز المأبون. فلا يعقل أن يكون للمرء مثل هذه الزوجة و هذه الابنة و يفعل الفحشاء مع جنسه نفسه لعنة الله عليه. وشجعنى على ذلك جرعات متتالية من النبيذ الفرنسى الفاخر، كانتا تصبانه لي، وأنا لم أتعود على شربه أبداً، و إذا تمنعت تقولان أنه مجرد فاتح للشهية! لكنه جعل رأسى يدور، و يشتعل بجرأة

عجيبة. و شعرت بجسدى ضعيفاً، ورأسى مثقلاً بالنشوة، وكادت عيناى تنغلقان رغماً عنى. فأسرعتا بطلب القهوة، بزعم أنها ستجدد نشاطى. وما زلت لا أذكر كيف جرؤت على إخبارهما بأمر الشيخ المحترم وفحشه الكريه، وبدلاً من أن تُدهشا أو تتجهما جعلتا تضحكان ضحكاً شديداً، وتضربان كفاً بكف تعجباً من سذاجتى و طيبة قلبى. وقالت السيدة "لِمَ تراه إذن يسكن الفنادق و لا يقيم معنا!! و هذا أمر قد اعتدنا عليه من قديم، و كل منا يفعل فى حياته ما يحلو له ولا يسأل صاحب صاحبه أى شيء فعل. " فأردفت الفتاة الصغيرة " دع الملك للمالك. ذهب هو يبحث عن لذته فى أوروبا، و نحن نجرب حظنا هنا. " ثم نهضت تضع شريط كاسيت فى الفيديو، بعد أن تبادلت مع السيدة نظرةً ذات معنى! كان الفيلم لراقصة مشهورة ترقص شبه عارية فى حفل خاص... و صخبت الموسيقى بإيقاعات سريعة و رأسى يطن معها، وعيناى تدوران وراء جسد يتلوى ويتثنى و يترجرج بفحش شديد، وأنا غير قادر على انتزاع عينى من صخب الأرداف و الأثداء المهولة. و إذا بالفتاة تنهض و هى تقول " هل تعجبك هذه المغرورة بنفسها، فلتحكم أنت أينا أبرع و أمهر! " و تمنطقت بإيشارب حريرى، و بدأت ترقص مقلدة الراقصة و أمها

تشجعها بهزات من جسدها وصدرها، و الفتاة تفوق الراقصة بمراحل. وأقول لك الحق، لقد أخذنى الطرب وجعلت أصفق للبنت و هى تتمايل على، وتلمس ساقيّ بيديها وصدرها فى كل حركة، و تغمز لى بطرفها، و ترتاح ثوانٍ على حجرى كعادة راقصات الملاهى المحترفات، حتى شعرت بالدم يسخن فى عروقي، ويوتر أعضائى كلها. فخشيت أن يفتضح أمرى، فوضعت وسادة على حجرى أدارى بها نفسى، و أنا مطوق بخدرى وذهولى لا أعى شيئاً. ضحكت الفتاة من فعلتى و انقضت كالصقر تنزع الوسادة عنى وتقول "يا لك من غر. أتخفى ما لو أراد الله إخفاءه ما كان خلقه أصلاً." وبدأت الأم تساعدها فى حل أزرار سروالى و هى تقول " التخمين لا يكون مثل النظر " ، وتخرجان عضوى و أنا مائت حرجاً ومشدوهاً لا أعرف ماذا أفعل، و عاجز عن المقاومة تماماً. و البنت تردف " كما قلت لكِ إنه ليس كبيراً جداً، لكنه يفى بالمطلوب إن شاء الله ." وجلستا كلتاهما على الأرض، كأنهما تزنان و تقيسان شيئاً كانتا قد اشتريتاه حديثاً لا يمت لى بصلة. وقد أغلقت عينى تماماً لا أعرف من الحرج أم من المتعة، حتى أوشكت أن انتهى ويفتضح أمرى معهما. وكأنما شعرتا بذلك أيضاً، فقالت الفتاة " والله إن أهرقت ماءك الآن، أهرقنا دمك !" و أتتا بحق

فيه دهان عطرى، و قالت الأم " لن تخشى سزعة الإراقة بعد هذا " ، و وضعت من الحق فى كفيها ودلّكت به عضوى فزاد انتشاره وعظمت حرارته جداً، و قل إحساسى بالخوف من قذف مباغت، و أذهلنى أن الخادم كانت بالباب واقفة تراقب كل هذا، و عيناها تلتمعان بالشهوة و تغالب ضحكها من سذاجتى. ثم سمحتا لى بارتداء سروالى ثانيةً، و أشارتا أن أتبعهما إلى حجرة أخرى، ففعلت ما أُمرت به بحركة آلية موجهة بقوة غامضة. أوصدتا باب الحجرة علينا، و أشارتا لى بالصعود إلى سرير هائل، ففعلت. و خلعتا ملابسهما فى دقائق، و شرعتا تخلعان ملابسى، و جسدى مستريح إلى السرير، حتى لقد غفوت فعلاً. وكنت أفتح عينى كل فترة لأجد إحداهن تعتلينى و تضاجعنى و هى فى غاية السرور والهياج، ثم تنزل عنى لتصعد الأخرى و أنا غير شاعر بشيء، إلاّ بعضوى المتوتر المشدود... و قد استحالت شهوتى إلى ألم، و كلى أمنية أن ينتهى ذلك و أستريح من انتعاظى المؤلم، و أنام بلا يقظة، حتى انحلّت قواهما تماماً، فأتين بماء دافىء جعلتا تغسلان به عضوى لتزيلا أثر الدهان اللعين، ثم أشارتا للخادم فدخلت عاريةً مثلهن و اعتلتنى بدورها، و فعلت مثلهن وأكثر حتى أتينا شهوتنا معاً، و المرأتان تراقباننا و هما تتباوسان و

تتهارشان فى هياج شديد. فقلت فى سرى "و مساحقات أيضاً، لعن الله الزوج و العائلة كلها"، ولم أدر بنفسى حتى صباح اليوم التالى.

(٤)

عندما أفقت وجدت تحت وسادتى مظروفاً به ٣٠٠ جنيه، فقلت فى نفسى و الله لو استمر الحال هكذا شهرين لصرت ثرياً، وسيارتى مصانة من المشاوير والمشقة. وما دمن قد وقعن فى شراكى فلماذا لا أطلب أكثر؟! وقطع تخيلاتى صوت صاحبة الدار توقظنى "انهض يا بنى فقد نمت ما يكفى، و الإفطار جاهز." وبعد الإفطار قالت انهما قد احبتانى و صرت واحداً منهم، و لا قدرة لهما على تركى أبداً، فلماذا لا أسافر معهما لمدة عام وأعود ثرياً." فقلت أن ليس معى جواز سفر و لا فيزا و لا شىء من هذا. فقالت أن ذلك هين ويسير إن شاء الله، على شرط واحد ألا أخبر إنساناً بذلك. فحلفت على ذلك، وبعد ساعة أحضرتا لى أوراقاً لأكتبها، و جاءتا بمصور التقط لى بعض الصور و وقعت بعض الأوراق، و أنا أتعجب من أمور تسير بسهولة عجيبة و كنت أظنها مستحيلة. و بعد العشاء كان معى الجواز والفيزا و كل شيء. فأحضرن لى

مشروباً غريباً به مزازة شديدة، ووقفن على رأسى حتى أنهيته ورحت فى سبات عميق.

(٥)

لم أعرف كم مضى على نائماً أو مخدراً. أفقت فى حجرةٍ أخرى و مكانٍ آخر. كلما تطلعت من نافذة وجدت حولى صحراء شاسعة. فتحت الزجاج و فوجئت بحرارةٍ لاهبة، فأحكمت إغلاقه بسرعة حتى لا يضيع أثر المكيف. لا صوت يصلنى إلا أزيزه المستمر. والخادم تأتينى بالمأكول والمشروب و كل ما أريد فى سريرى، وإذا سألت عن المرأتين تقول ستأتيان بعد قليل. و ما أن استجمعت قوتى قليلاً وتركت السرير إلى كرسى شيزلونج مجاور حتى شعرت بالبرد، إذ لم يكن يُخفى عريى إلا جلباب فضفاض من الحرير دون أى شىء آخر. فطلبت من الخادم أن تخفف من درجة التبريد أو تأتينى بملابس ثقيلة، فقالت أنه لا سبيل إلى هذا أو ذاك لكنها ستفعل ما فى وسعها لتبث الحرارة فى جسدى. وإذا بها تعرى ساقىّ من جلبابى وتجلس على حجرى، رافعةً سروالها أيضاً كاشفةً عن إلية تتفجر دفئاً ونعومة و شبقاً، وكأن بها ناراً تنتقل من جسدها إلى جسدى، حتى غلبتنى الشهوة و هممت بها،

فتملصت منى و قفزت كالملسوعة و أنا أقفز خلفها، دون أن أقدر على مسكها أبداً. و لما اشتد التعب بكلينا، استوقفتنى وقالت " إن رغبتى أشد من رغبتك، لكنها أوامر السيدتين أن أقف معك عند هذا الحد !" وهرعت خارجة لتدخل المرأتان فى التو واللحظة و هما تبديان الغضب، و الصغرى تقول "أما كفيناك نحن حتى تفحش بالخادمة يا ناكر الجميل!" توسلت إليهما أن تسامحانى، فقالتا "ليس قبل تأديبك !" وأصعدتانى إلى السرير عارياً، وأوثقتا ذراعيّ مفتوحين كلّ فى طرف من أطراف السرير، واعتليتانى واحدة بعد أخرى، كما فعلتا فى السابق، وأنا أتعجب من عقابهما، حتى انحلت قوانا جميعاً فحلتا وثاقى، و تركتنى و ذهبن.

(٦)

مــر زمن على هذا المنوال، وصــرت لا أرى الخــادم أبداً. لكن الطعام والشراب ظلا يأتيانى فى موعدهما، إضافة إلى النقل والحلو وأشياء أخرى. وأنا آكل كخنزير ولا أدرى ليلاً من نهار، وأخشى أن أسأل عن الخادم حتى لا أسبب لها مكروهاً. إلى أن جاء يوم قالت السيدة إن لهما صديق سورى ستأتيان به لعله يقوم معى ببعض الشغل، فوجمت. نُقلت إلى

غرفة أخرى بها سريران، فاشتد غضبى وعزفت عن الطعام والشـراب، وقلت لهـمـا " أنا لا أقـدر على فـعل شـىء من هذا أمام رجل آخر أبداً". فقالتا أنى غرّ تافه، و أنهما تعرفان أكثر منى فى هذا البـاب، فـلأسلم قـيـادى لهـمـا دون مناكـفـة. فسألتهما إن كانتا قد رأيتا منى تقصيراً، فقالت السيدة " لا، و لكن التجديد والتنويع يُذهبان الفتور والكسل"، و قد لاحظتا فى الآونة الأخيـرة أنى أعـمل بلا حـمـاس، كـأن بى مـرض غامض". ثم وضعت صغراهما فيلماً فى الفيديو كله فتيات يتسـاحـقن و يأتين أمـوراً شنيعـة من الخـلاعـة، وأنـا جـالس كالجماد لا أحرك ساكناً. و مهما فعلت لى السيدتان، فعضوى لا ينهض أبداً. حتى أنهن وضعتا عليه الدهان مجدداً – وكانتا قـد كـفـتـا عن ذلك منذ زمن –، وازدردت أدوية و عـقـاقـيـر مختلفة، كلها لم تجد معى شيئاً. فقالت الفتاة "ما شأنك ... وكـانت سـرعـة إثارتك مشكلة، فـبطؤك الآن أصـبح مـزعـجـاً جداً". قلت " أنا ـ فى الحقيقـة ـ اشتقت إلى أهلى ووطنى"، فقالت "العام لم ينصرم غير نصفه فقط، إن بيننا عقد و لن تسافر إلا بتمام العام". و زاد غضبهما على جداً، و عاينت منهمـا نيـة الشـر والأذى. استطعت بصعوبة بالغة أن أنجـز العمل فى ذلك اليوم، لكن فى اليوم الذى تلاه عجزت تماماً.

جربت كل حيلة وتذكرت كل الأمور الجنسية التى حدثت لى و رأيتها رأى العين، و كانت حلم مراهقتى. لم ينجح شىء منها فى استثارتى، و كأن عضوى قد أصر على رفض ما يحدث وتمرد على رغبتى نفسها. فزادهما ذلك غضباً، ووصفتانى بناكر الجميل، قليل الأصل الذى خان العيش والملح. و قامتا بنقلى ومعى كل ما أحتاجه إلى غرفة أخرى، وقالت السيدة " سنترك لك – هنا – فرصة للتفكير و التأمل". و ردت الأخرى " ربما يساعده تغيير الطقس على ذلك ...". و لم أفهم شيئاً فى التو، فقط بعد أن خرجتا وأغلقتا على الباب، شعرت أنى فى أحد الأفران، أو قلاية الرهبان فى أديرة الصعيد... آه، ليس هناك تكييف... والحجرة فى أعلى مكان من القصر، محاطة بالشمس طوال اليوم. كنت أتصبّب عرقاً وأكاد أختنق من الصهد، و أيقنت أن أجلى قد حان، و أن هلاكى آتٍ لا محالة. و كل يوم تأتيان إلى و تسألانى " أما زلت تبغى العودة لأهلك ؟!" فأومئ بنعم ... فتصفعانى وتضربانى ضرباً موجعاً شديداً، ثم توصدان الباب وتذهبان.

(٧)

كان حلمى الذى يطاردنى – كلما غفوت – أنــى قابع داخل

سيارتى - فى الثالثة ظهراً - فى شهر يوليو، و الحرارة قد تجاوزت ٤١ أو ٤٢، و الأسفلت يقذف صهداً رهيباً، و السيارة كأنها شواية... كلما لمست جزءاً منها لسع أصابعى. و أنا بين طابور سيارات طويل على كوبرى (٦ أكتوبر)، وصوت الموتورات و رائحة غليانها، و العادم الأسود، و العجلات الكاوتش توشك أن تحترق، و أشم شياطها، فأصحو متصبباً، والقى جرادل الماء على رأسى و ملابسى التى تجف بعد دقائق، فأعاود الكرة طول النهار. و أتمنى أن يتحقق الحلم وأعود سائقاً أناكف الزبائن و عساكر المرور والميكانيكية، و أشرب زجاجة البيرة كل مساء عند بقالة أخى مسعد، و نبث كلٌ للآخر كمد اليوم وأحزانه وننام راضين. وساعدنى على تحمل هذه الحجرة اللعينة عزوفى عن الطعام الدسم، متذكراً كيف يأكل الرهبان الخبز و الملح فقط طيلة ٤٠ يوماً فى مبدأ سلوكهم الرهبنة، و انقطاعهم للتعبد والتأمل. ففعلت مثلهم، و لبست ملابس ثقيلة كما يفعل البدو فى حر سيناء. فالعرق الشديد يبرد الجسد، و البلولة الدائمة على الرأس تمنع انفجاره. باختصار، صار همى الوحيد أن أكافح الصهد. و سؤال المرأتين لى كل صباح لا ينقطع، و كذا الصفع و الضرب. حتى كان مساء تذكرت فيه أننى لم أقرأ الفاتحة للسيد البدوى فى مشوار طنطا الأخير،

وهذا شيء لم يحدث أن نسيته أبداً. فجزعت جداً، واعتذرت له في سري، و قرأت له الفاتحة و أوراداً كثيرة منَّ الله على بتذكرها. و لم تمض أيام إلا و بدأ الطقس في التحسن، فانتعشت معنوياتي قليلاً. وذات ليلة فُتح الباب على غير المعتاد، ووجدت الخادم توقظني و تهمس لي أن المرأتين تبغيان قتلي، و أنهما ذهبتا إلى مدينة أخرى تكتريان من الرجال من له دُرْبة على هذا العمل، وأن كثيرين قبلي مدفونين هنا في حوش القصر و الصحراء القريبة، و أن أمامي فرصة للنجاة والهرب الآن و إلا فهلاكي حتمي. وناولتني ملابسي القديمة وجواز سفري و بضعة دولارات، و شرحت لي كيف أصل للمطار حيث هناك طائرة تقلع بعد ساعتين. و قالت "أدعو الله أن تغادر البلاد قبل عودتهما وإلا قتلتانا معاً"، وطلبت مني أن أشد وثاقها ليبدو الأمر من تدبيري، ففعلت. وأردت أن أقبلها على سبيل الشكر لمعروفها فرفضت حتى لا نضيع الوقت. فذهبت من فوري، ولم أصدق أني نجوت إلا حين أقلعت الطائرة، و عاينت رائحة تلوث قاهرتي الحبيبة و ضجيج ناسها و سياراتها و جنونها، و كدت أندفع إلى الحارة، حتى تذكرت نصيحة الخادمة بالإختفاء في مكان أمين أو مدينة أخرى. فالمرأتان لابد سترسلان من يبحث عنّي، ولهم شِباك

فى كل مكان. فذهبت إلى الإسكندرية، و سكنت فى فندق رخيص - تجد عنوانه مرفقاً بخطابى - و عسى أن يمن الله على بفرج قريب فأحظى برؤياكم. بلغ سلامى إلى الشيخ زيدان، وفى انتظار ردكم. لكم منى كل تحية واحترام...

و السلام]

(٨)

لم أصدق ما تقرأه عيناى، و أعدت قراءة الخطاب مراراً وتكراراً، و مع كل قراءة يزداد هلعى و تداخلنى رعدة و فزع شديدان، و أدعو الله فى سرى أن يكون كل ذلك من هلوسات محمود و خياله الجامح، حتى تذكرت الشيخ زيدان، فهرعت إليه أسأله المشورة. إبتسم الرجل وقال أن ذلك من فعل بنات الجان، وأن هناك رصَداً جعل محمود عِنّيناً، وأنه سيحاول فكه، ويلزم لذلك إحضار محمود إلى هنا لإنجاز الأمر، وعليّ أن أذهب لإحضاره فوراً، وأن نعود فجراً دون أن يرانا أى إنسان. وأعطانى حجاباً لأربطه بنفسى على ذراع محمود، وأحلفه ألا يخلعه عنه أبداً مهما كانت الأسباب، وإن فعل سيصل إليه سليماً إن شاء الله وسيبرأ من علته، ودعا لنا دعاءً حاراً. قبلت يده ومضيت.

(٩)

وجدت محمود فى الفندق. كان وجهه قد تبدل وتغيرت ملامحه، ولم تبق فى رأسه خصلة سوداء. وكلما سألته عن شىء ذاب فى النواح والبكاء، وأنا معه. و هو يقبلنى غير مصدق لوجوده معى، ويتمنى أن تكتحل عينه بمرأى الشيخ زيدان. ولو مات بعد ذلك فى حارته لمات مرتاحاً. طمأنته وربطت الحجاب على ذراعه ـ حسبَ نصيحة الشيخ ـ وجمعت حاجياته القليلة، وعدنا إلى الحارة قبل بزوغ الفجر بقليل.

مضت بضعة أيام لم أذهب فيها للزاوية، و لم أسمع عن محمود خبراً، حسب نصيحة الشيخ زيدان. حتى كان صباحٌ رأيت وجهاً غريباً يلف ويدور فى الحارة و يسأل عن محمود، مما زلزل قلبى رعباً. فانتظرتِ حتى صلاة الفجر، و ذهبت إلى الزاوية. طمأننى الشيخ وقال أن مخبأ محمود لا يمكن معرفته، خاصةً و قد تغيرت ملامح هذا الأخير الآن، و صار من الصعب التعرف عليه. عدت، و رعب غامض لا يترك صدرى.

(١٠)

علمت فى اليوم التالى، أن فوزى السباك عاد إلى مصر

فى إجازة من عمله فى الخليج. وبعد أن علم باختفاء محمود، زارنى ليلاً و سحنته تشى بأمرٍ جسيم. قال لى " لولا أنك صديق محمود وحافظ سره ما كنت لأخبرك بشيء!" فأخذت أشجعه و هو خائف متردد، حتى قال " لقد شاهدت محمود بأم عينى إذ كنت أرمم مواسير أحد القصور فنظرت من خصاص نافذة مغلقة، ورأيت محمود عارياً مقيداً فى سرير واسع من يديه، و عضوه مشدود. و صاحب القصر وابنه يرتديان ثياب النساء الداخلية، و يتبادلان فعل الفاحشة معه دون رغبته. و كان المسكين شبه ميت، و عيونه تبكى فى نومه. وما أن أطلت النظر حتى زجرتنى خادم المنزل، وقالت لى " والله لو أفشيت فضولك لهم لقتلوك!" و حذرتنى أن أتكلم عن ذلك لأى مخلوق. وهذا آخر عهدى به و الله أعلم."

(١١)

لم يندهش الشيخ زيدان، و بدا كأنه يعلم بذلك أيضاً، وقال" ألم أقل لك أنهما من بنات الجان، و تقدران على التحول لأى شكل تريدان. و سل محمود نفسه، ستجده غير قادر على وصفهما أبداً" فقلت "إن كانتا من الجن فكيف تتركانه يهرب و لا يقدر أحد أن يهرب من الجن أبداً!" فقال " سبحان مسبب

الأسـبـاب، و هل كنت أنا غـافل عنه. بمشـيـئـة الله و فـضـله قيدتهما لـه، و جعلت الخادم تيسّر له الفـرار. وفوق كل ذى علمٍ عليم".

(١٢)

زادت حـيـرتى أكثـر، و عكفت على غـرزة لمعى لأقتل القلق بالحشـيش، وأعـود للمنزل متـأخـراً أسـتعين على الأرق بالخـمـر وغيره. وذات مسـاء، أيقظنى طرق عنيف على البـاب، كان فوزى السباك. قال أنه سيسافر غداً، وأنه سيراعى ضميره ويخبرنى بكل شىء. وأخـرج من حـافظتـه ورقـة مـطبـوعـة بهـا صـورة لمحـمـود، و مكتوب بها أنـه مطلوب للقـصـاص، فـقـد قـتل رجـلاً عجوزاً و سرق ماله، و إعلان عن مكافـأة سخية لمن يرشد عنه. قال فوزى أن القـاتل الحقيقى هو ابن الرجل نفسـه، وأنه سـاعد مـحـمـود على السـفـر و الفـرار حـتى يلصق به التـهـمـة. و أن محـمود مقتول لا محـالة ما لم يكونوا قد قتلوه فـعلاً. والجـمـيع هناك يعلمون حقيقة الأمر، لكن الولد القاتل من عائلة كبيرة، و لا مـصلحـة لأحـد فى فـضـحـهـا أو فى القـصـاص من نجلهـا الوحيد!... ترك لى الورقة، وذهب.

(١٣)

فى الصباح التالى هرعت إلى الزاوية. كان الشيخ زيدان يبكى فى صلاته بكاءً يمزق القلب، وينشج مثل طفل. سألته عن محمود، فصمت ساعة ثم هدأ و قال " قد استطعت فك رصده وشفاءه من عنته و اخترت له عروساً بكراً، لكن المكتوب لا مفر منه... لقد ذهب محمود يستحم و أنا مستغرق فى صلاتى، و لما طال مكثه فى الحمام نظرت فى ملابسه فوجدت الحجاب مخلوعاً. فهرعت وكسرت عليه الباب ... وجدته مشنوقاً عارياً، مقطوع الذكر من بعد الخصيتين... و سبحان من له الدوام!!!" طلبت من الشيخ أن أرى صديقى للمرة الأخيرة، فقال أنه قام بواجب الدفن، وفعل ذلك فى حوش الزاوية نفسه مخافة عيون أهل الحارة. صليّت معه ركعتين على روح القتيل، و قبل أن أمضى سألته " ألا يجب أن نخبر أهله؟ ". فقال " لا داعى لصدمهم، لنتركهم ينعمون بالأمل فى عودته على الأقل!" تركت الشيخ، و اشتريت عدة زجاجات من الخمر و حشيشاً وطعاماً يكفينى عدة أيام، و أغلقت المنزل عليّ لا أفيق من الخمر، و لا أفتح الباب لطارق أبداً. حتى كان صباح نهضت فلم أجد ما أشربه أو آكله، و رأسى ينفجر من صداع شديد. قررت أن أخرج لشراء ما أحتاج والعودة على وجه السرعة.

(١٤)

مــا أن خــرجــت إلى الشــارع و أنا بين النوم واليـقـظة، إذا بوالد مـحـمـود يظلع متوكئاً على عصاه ووجهه مرهق يتصبب عـرقـاً. هـبط قلبى فى أحـشـائى... هل أحس الرجل بشيء !!؟ ماذا عساى أقول له إذا سألنى الآن !؟؟ بادرنى هو " أين كنت يا رجل ! بحـثنا عنك فى كل مكان. كان مـحـمـود مـصـراً أن يراك قبل سفره. لقد جُدد عقده عاماً آخر و بمرتب أكبر، و رقّى إلى سائق خـاص بالأمير. إنهم هناك لا يستغنون عنه أبداً. ودّعناه منذ سـاعة فى المطار. حملنى إليك سلامات كثيرة جداً ويقول لك لا تقلق، إن العقد الذى طلبته منه سيصل بعد شهرٍ على الأكثر. فلا تبطئ فى استخراج الأوراق والشهادات المطلوبة، و ربما طلبـوك فى أى وقتٍ. و إن شـاء الله تلتقيان هناك عـمـا قريب."

اثنان فى الغربة

(مشهد ١)

[هيكل خشبى لكوبرى فى آخر المسرح ، فى المنتصف حوض واسع ممتلئ بالماء.. صورة للبحر فى خلفية المسرح.. يتقابل شخصان يرتديان بزتين.. بالفتى الأناقة على منتصف الكوبرى بالضبط يتصافحان بحرارة]

١) أهلا إزيك بقى لى سنة مشوفتكش

٢) أيوه فعلا.. سنة بالضبط.. يا ترى لقيت شغل؟ إفتكرتك زهقت ورحت على بلد ثانية!

١) والله.. مالقيتش شغل.. لكن فيه مكتب كده بيشغلنى فى حاجات مؤقتة.. شغلة كل أسبوع!

٢) وأنا كمان! أهو كله شغل والسلام

١) يا ترى جاى علشان تعوم ؟

٢) أيوه الشمس معقولة النهاردة.

١) بس الميه ساقعة شوية!

٢) لأ.. دا رضا قوى.. أوعى تكون لسه بتفكر فى مصر!

١) مصر.. دا كلام؟! بلاش السيرة دى الله يخليك وقوم بينا نلحق نعوم لنا شوية قبل الشمس ما تزوغ!

٢) معاك حق.

١) طيب يالا بينا (يلاحظ أن كلا منهما يحمل حقيبة كبيرة.. أصغر قليلا من حقيبة السفر.. والحقيبتان لهما نفس الحجم تقريبا).

م. (يمكن أن يخلعا ملابسهما على المسرح.. أو يختفيا ثم يظهرا ثانية بملابس البحر..).

مشهد (٢)

يظهران بالمايوهات وكل منهما يمسك حقيبته.. ينزلان إلى الماء ببطء.. يبدو عليهما الشعور بالبرد.. وكل يحاول إخفاء مشاعره.. ينظران كل فى عين الآخر.. ويتبادلان النظر إلى الحقيبتين).

٢) لأ والله الميه معقولة

١) فعلا بعد سنة فى البلد دى الواحد بيتعود على كل حاجة

٢) بس أنت فعلا جاى تعوم ولا فيه حاجة ثانية؟

١) آهه.. يعنى.. عوم على شغل! ها ها

٢) أنا خمنت كده برضه أنك جاى فى شغل (يفتحان الحقيبتين فى توقيت واحد.. كل منهما يخرج طفلا من الحقيبة)

١) الله.. أنت بقى تبع نفس المكتب اللى بيشغلنى!

٢) يعنى كل المكاتب دلوقتى كده.. بس محدش بيرضى يشتغل الشغلانه دى غير الأجانب اللى زى حالتنا.. أهل البلد بيكرهوا الشغلانة دى قوى.

١) ياسيدى.. آهو كله شغل.. بس ربنا يبعت!

٢) أيوه.. بس المرض الغريب ده محير الدنيا محدش عارف سببه إيه!

١) كويس أنه بيموت العيال بس!

٢) دى كلها أعمار بس مش المفروض ناخد العيلين دول لجوه شوية علشان محدش يشوفنا!

١) لا مش مهم.. الموج حياخدهم بعد شوية

٢) بس لو البوليس شافنا جايز يبقى فيها سين وجيم!

١) اطمئن.. البوليس عارف أن مصاريف الدفن والحرق غالية قوى.. علشان كده بيعمل نفسه مش شايف!

"يطفو الطفلان فى الماء.. يتأرجحان قليلا"

٢) متهيأ لى زى ما يكون الولد ده لسه صاحى!

١) لأ دى الميه اللى بتحركه.. يفضل كده عايم شوية وبعدين تدخل الميه جواه.. يتقل ويروح غطسان!

٢) أنت الظاهر بقى عندك خبرة كويسه

١) دى خامس مرة بس!

٢) أكيد فى الأول اتخضيت

١) أتخض طب ليه؟.. إذا كان أهله هما اللى عايزين كده.. وأنا اللى باخده منهم أقل من ربع اللى كانوا حيدفعوه فى الدفنة.

٢) المرة اللى فاتت بينى وبينك جبت معايا حجر تقيل ربطت فيه الواد ـ وراح غطسان على طول.. موضوع مخدش عشر دقائق.. قلت لأ أنا أسيبه يعوم شوية.. لحد ما يغطس لوحده.. وآخد كمان ساعتين عوم.. ويبقى العملية كلها شكلها طبيعى فسحة وشغل يعنى!

٢) أيوه كأننا بنلاعب عيالنا (يخرج كاميرا من الحقيبة ويلتقط صورا للطفل)

١) الله.. دى باين عليها كاميرا كويسة.. جبتها منين!

٢) دى مش بتاعتى.. أهله إدوهالى بيحبوا يعملوا صور لكل حاجة.. بيتهم كله مليان صور.. علمونى أشغلها إزاى

وأضبط الكادر والضوء وكل حاجة..

١) نفسى والله أشترى لى واحدة زى دى.

٢) ليه هتشتغل مصوراتى!

١) لأ بس عايز أبعت صور لعيلتى فى البلد!

٢) العيال قربوا يغطسوا لازم أصور بسرعة!

١) (مستمرا) نفسى يبقى عندى ألبوم صور للعيلة كلها

٢) يا شيخ بلاش شؤم

١) أهى حاجة تسلى الواحد فى غربته

٢) مفيش غير الفلوس اللى ممكن تسلى اللى زى حالتنا!

٢) وبتأخذ أجر كويس!

١) حسب التساهيل.. أهو من يوم الحمى دى ما انتشرت.. والرزق مش بطال!

٢) أيوه.. حانوتى مائى!

١) أنت بتّتريق.. ده أنا اتعملى لى امتحان فى العوم والغطس ونجحت من بين عشرين واحد!

٢) أنا بقى ما حدش إمتحنى.

١) أمال شغلوك إزاى؟

٢) أبدا دى ناس معرفة قديمة.. باعملها لهم خدمة..

باخد نص اللى بياخده منهم المكتب.

٢) لازم آخد صور للواد وهو بيغطس.

١) ليه!

٢) علشان المكتب يتأكد أن الشغل مظبوط وأنى مارمتهوش فى أى حتة.

١) يا سلام!.. طب ما كلها دفنه وخلاص!

٢) لأ.. فى الميه الميكروب ما ينتشرش ، لو رميته فى أى حته.. يبقى خطر على الصحة والبيئة.. وجمعيات البيئة ترفع قضية ع المكتب وتبقى حكاية!!

١) والله دى ناس عجيبة.. بيستقبلوا الموت بروح رياضية جدا..

١) لأ مش النظرية.. دى ناس عندهم علم وثقافة عارفين أن المرض ده مالهش حل.. واللى حتى ممكن يخف منه.. يفضل متخلّف عقليا.. يعنى معتوه طول عمره

(يتشنج الطفلان فى حركة مفاجئة ـ يتأكدان أنهما لا يزالان أحياء.. يتبادل الرجلان النظر لبعضهما فى دهشة)

٢) معقولة يكونوا لسه صاحيين!

١) صاحيين ولا ميتين أنت مش قبضت يبقى تعمل شغلك وبس!

٢) بس يعنى ده مش حرام!

١) يا راجل بلاش كلام فاضى.. يعنى حتكون أنت أحن من أهلهم عليهم.. يالا غطسهم بسرعة لحسن الميه سقعت قوى.. والشمس راحت!

٢) أيوه.. أنا جسمى بيترعش.. وجايز الواحد ياخد له برد.. ولا انفلونزا.. ويصرف القرشين على شوية دوا.. تبقى مصيبة!

(كل منهما يجذب رجل طفله ليغطسه جيدا)

الحمد لله أهو غطس

١) أيوه وده كمان.. أهو قرب.. بيعافر مع أنه أصغر من الواد اللى معاك

٢) أيوه وزنه أخف.. بياخد وقت أطول!

١) تيجى نربطهم مع بعض!

٢) لأ.. محدش طلب مننا الحكاية دى

١) آه.. والناس هنا حنبليين قوى.. ميحبوش زيادة ولا ناقص.. زى ما قالوا لك تعمل.. يعنى تعمل.

٢) يالا أهو الثانى غطس هو كمان!

١) نطلع بقى

٢) أيوه يالا بينا (يخرجان من الماء).

(مشهد ٣)

(يظهران بكامل الزى الرسمى كما فى أول مشهد)

١) حاشوفك تانى ؟

٢) أكيد

١) إمتى ؟

٢) مش عارف! أنا ساكن فى حتة بعيدة قوى وتذاكر المترو غالية زى ما أنت راسى!.

١) طيب خليها بظروفها.

٢) يعنى لو جالى شغل.. حا آجى هنا برضه.. أنا معجب بالمكان ده.

١) فعلا.. اختيار ذكى.. قعدت أدور نص يوم لحد ما لقيته.

٢) طيب استأذن بقى (يبدأ فى الابتعاد.. ثم ينتبه إلى شئ تذكره..) طيب أسمع إدينى نمرة تليفونك.

١) ما معايش لا ورقة ولا قلم (يواصل ابتعاده).

٢) ولا أنا!

١) يبقى خليها للمرة الجاية!

٢) ربنا يبعت.. باى

١) باى.. باى

(يختفيان)

مصادفة

أو

حدث ذات مساء بهيج..!

(شاب فى الثلاثينات.. يجلس على مقعد فى كازينو النيل.. و امامه على المنضدة عدة صحف مطوية و فنجان قهوة و نظارة طبية و علبة سجائر وولاعة, تظهر انوار المكان الصناعية خافتة و مازال ضوء االنهار ينحسر فى هدوء قبل الغروب بلحظات قليلة.. و اثناء العرض يختفى ضوء النهار تماما و يصبح المكان مظلما الا من الأضواء الصناعية, الشاب يدخن باستمتاع.. مستمعا لموسيقى خافتة تجعل المكان دافئا, يبتسم وجه الشاب بهدوء حزين.. وارتياح من أثر المكان والموسيقي, من آن لآخر يهم بفتح الجرائد.. ثم يقرر ان يتركها.. لا يريد لأى شيء أن يكون مصدرا للازعاج.. يقترب منه رجل فى الأربعينات.. يحوم حوله فترة دون أن يلاحظ الشاب, ثم يقرر الرجل أن يجلس على ذات المائدة..)

١- من فضلك.. ممكن أقعد هنا!. أصل كل الأساكن مشغولة!

٢- (مرتبكا من المفاجأة و دون أن يلتفت الى الرجل) آه طبعا.. اتفضل!

١- (بعد ثوان من الصمت) ممكن استلف الجريدة!

٢- اتفضل! (يناوله الجريدة)

١- أشكرك.. (يتصفحها قليلا) حضرتك بتفضل الأهرام!

٢- أهه.. يعنى اللى بلاقيه.. أهرام.. أخبار.. مفيش فرق!

١- لأ.. هو فيه

٢- آه.. طبعا (راغبا أن ينهى الحديث)

١- بس حضرتك قلت مفيش فرق!

٢-.. (صمت)

١- ولا.. ايه!

٢- أيوه.. أحيانا

١- ايه.. هو.. اللى أحيانا؟

٢- أحيانا بلاقى فرق

١- زى ايه

٢- (صمت..) متهيألى مسألة عادة مش أكتر

١- و انت بقى متعود على الأهرام

٢- تقريبا

١- الله!.. امال حضرتك تقصد ايه انك بتجيب اللى تلاقيه

٢- (و قد بدأ يشعر ببعض الضيق) يعنى لما مالاقيش الأهرام أجيب الأخبار.. الجمهورية.. أى حاجة

١- لكن طبعا.. بتبقى متضايق شوية!

٢- يعنى.. مش قوي

١- بس شكل حضرتك بيقول انك متضايق!

٢- (صمت)

١- حضرتك مش ملاحظ حاجة؟

٢- حاجة.. حاجة ايه؟

١- (يهمس) كل الناس هنا قاعدين إتنينات و تلاتات.. وانت الوحيد اللى قاعد لوحدك!

٢- (ينظر حوله).. آه.. فعلا

١- لازم فيه سبب

٢- مش بالضرورة

١- ازاى!

٢- صدفة

١- لأ.. متهيألى مش صدفة!

٢- (صمت)

١- بقى لى أسبوع باجى هنا كل يوم.. دى رابع مرة أشوفك قاعد لوحدك!

٢- جايز!

١- لأ .. مش جايز.. لأ انا متأكد

٢- (صمت)

١- قعادك لوحدك أكيد ليه سبب

٢- سبب

١- يعنى جايز تكون متضايق من حاجة.. واقع فى مشكلة خاصة.. حاجة زى كده؟

٢- لأ .. معنديش مشاكل و لا حاجة (بدأ يتوتر)

١- متآخذنيش على فضولى.. أصل طريقة قعدتك كدة.. و ملامح وشك.. آه ملامح مش غريبة عليّ.. أكيد احنا اتقابلنا فى مكان قبل كده

٢- لأ .. محصليش الشرف

١- بس أنا أكيد شفتك و قعدت معاك كمان؟

٢- (صمت)

١- أقولك فين.. افتكرت

٢- فين؟

١- فى بار الماريوت

٢- جايز

١- يبقى هى فهمت السبب

٢- سبب ايه

١- البار ده أصله.. طبعا حضرتك عارف

٢- عارف ايه!

١- بتاع الشواذ!

٢- شذوذ ايه و كلام فارغ ايه! أنا راجل متجوز!

١- أمال فين مراتك!

٢- (ملتفتا) مراتى.. مراتى فى مشوار

١- مشوار.. مشوار ايه (بسخرية) هى المدام بتشتغل بالليل ولا ايه! ها.. ها.. !

٢- لأ.. أبدا.. معزومة على العشا

١- و ما رحتش معاها ليه؟

٢- أبدا بس ما عنديش رغبة!

١- ها.. ها (بسخرية) معندكش ايه يا سيدى!

٢- معنديش رغبة.. فيها حاجة دى!

١- أيوه.. فيها (صمت).. لاحظ ان دى رابع مرة أشوفك قاعد فيها لوحدك!

١- طبعا مش معقول تكون المدام بتتعزم أربع مرات فى الأسبوع.. ولا ايه!

٢- لأ.. طبعا

١- أمال.. ايه الحكاية بالضبط!

٢- مفيش لا حكاية ولا حاجة

١- لأ.. فيه!

٢- فيه ايه!

١- معاك سجاير؟

٢- أيوه (يناوله علبة السجائر والولاعة)

١- (يشعل سيجارة بهدوء) انت مبتحبهاش!

٢- (صمت)

١- أكيد مابتحبهاش!

٢- (صمت)

١- هى بتخونك! مش كدة!

٢- لأ.. لأ.. أبدا!

١- لازم انت بقى اللى بتخونها!

٢- لا.. لا..

١- بس لو جت لك فرصة هاتخونها.. مش كدة!

٢- مش عارف!

١- شفت يبقى هى كمان بتخونك!

٢- لا.. لا.. ماظنش!

١- عايز تفهمنى انك مش عارف!.. انت عبيط و لا بتستعبط! (تتحول المائدة الى ما يشبه مكتب تحقيقات بوليسية و الإضاءة تتوسطها و تبدو مزعجة جدا..)

٢- عبيط!

١- انت قلتلى بتشتغل ايه!

٢- أنا.. مهندس.. مهندس معمارى!

١- يعنى شغلك طول النهار

٢- تقريبا

١- و بعدين تيجى هنا تقعد لوحدك ٤ مرات فى الاسبوع

٢- (صمت)

١- يعنى تقريبا ما بتشفوش بعض! و بعدين عايز تفهمنى انها مش بتخونك

٢- أيوه.. صعب انها تخوننى!

١- صعب ازاى.. مادام انت بتشتغل طول النهار.. و هى سارحة على راحتها طول الليل!

٢- لأ.. أرجوك.. أنا ماسمحلكش!

١- مات.. ايه! أحسنلك تبطل اللهجة دى معايا!

٢- هو.. هو.. حضرتك ضابط؟

١- مش شغلك

٢- طيب!

١- انت معاك بطاقة!

٢- أيوه.. طبعا (يهم بابرازها)

١- أنا ماطلبتش منك توريهالى!

٢- (صمت)

١- أى واحد النهارده يقدر يزور بطاقة؟

٢- أبدا .. والله بطاقتى سليمة؟

١- وأنا ايه اللى يخلينى أصدقك

٢- (صمت)

١- عموما عايز انبهك.. ماحدش نجح انه يخدعنى أبدا

٢- طيب.. و انا هاخدعك ليه؟

١- أمال.. مش عايز تقول ليه؟

٢- أقول ايه بس؟

١- قاعد لوحدك ليه؟

٢- أبدا .. أنا باحب أقعد لوحدى؟

١- يعنى مش مدى ميعاد لحد؟

٢- أبدا!!

١- و مفيش واحدة هاتجيلك هنا دلوقت؟

٢- أبدا

١- ولا واحد؟

٢- أبدا

١- آه فهمت؟

٢- فهمت ايه

١- لسه السنارة ماغمزتش

٢- سنارة ايه

١- قلت لك بلاش استهبال

٢- (صمت)

١- و هى.. عارفة انك بتيجى هنا علشانها.. ولا لسه مكسوف تكلمها!

٢- (صمت)

١- قول.. قول.. ماتتكسفش!

٢- أقول ايه بس

١- (منفعلا) وحياة أبوك لاعرف أخليك ازاى تتكلم!

٢- (صمت)

١- شوف.. فيه ناس كتير زيك كده.. فى الاول يفتكروا انهم أذكيا.. و مش ممكن حد يشك فيهم مادام لابس كويس.. و قاعد فى ترابيزة و الجرايد قدامك.. وبتشرب قهوتك.. و تبقشش الجرسون.. و عامل نفسك سرحان فى النجوم.. خلاص.. يبقى كل حاجة تمام.. لكن أنا بقى ليّه نظرة تانية.. مجرد ماشفتك كل حاجة بانت قدامى!

٢- كل حاجة!

١- (مكملا).. اول مرة قلت جايز اكون غلطان.. لكن بقى المرات اللى بعد كده.. درست كل حاجة.. كل حركة.. كل تفصيلة.. !

٢- (مقاطعا).. طيب.. ممكن أمشى!

١- عاوز تروح فين

٢- عندى.. ميعاد

١- لأ.. بقى.. معندكش حاجة!

٢- و لو برده هامشى ! (ينهض)

١- لأ.. مش هاتمشى (ينهض متحفزا)

٢- لأ.. هامشى!

١- لأ.. اقعد.. بقولك بالأمر بقى (ينهض و يصفعه) تقعد يعنى تقعد!

٢- (يجلس منهارا)

١- انت اللى اضطرتنى اعمل كده!

٢- (صمت)

١- تشرب ايه.. لأ.. لازم تشرب حاجة.. جرسون.. جرسون هات واحد ليمون بسرعة!

٢- (يخفى وجهه بيده و يرتمى شبه مخدر أو نائم على المائدة)

١- شفت طول عمرى باقول الحماقة تولد حماقة زيها.. مفيش واحد ناضج يتصرف كده.. لكن اقول ايه.. سلوكك ده كان مفاجأة بالنسبة لى.. وانا كمان سلوكى كان مفاجأة.. يعنى خالصين و محدش أحسن

من حد!

(الجرسون يحضر الليمون.. يتركه على المائدة ثم يهمس فى أذن الرجل (١) بشىء.. يبدو على وجهه الانزعاج.. وينهض.. ينتحى بالجرسون جانبا.. عندما يلاحظان ان الرجل (٢) مازال منكفئا على المائدة.. يسرع الجرسون يخلع الجاكت الابيض و يرتديه الآخر.. و يأخذ منه الصينية ويمضى.. الجرسون (٣) وهو أكبر قليلا (حوالى ٥٠ سنة) يتجه الى المائدة و يجلس مكان الرجل (١)..)

٣- الله.. انت لسه زعلان.. معلهش.. ده مجرد سوء تفاهم بسيط.. سوء تفاهم يحصل كل يوم

٢- (يلاحظ تغير صوت جليسه فيرفع رأسه مندهشا من وجود الرجل الغريب امامه..)

٣- نحمد ربنا اللى جت على كده

٢- (يلتفت حوله) الله.. هو.. هو راح فين!

٣- مشى خلاص.. ماتشغلش بالك بيه.. طول عمره كده.. جاف و متهور (هامسا) ربنا ينجينا من أمثاله!

٢- صمت

٣- أنا كنت قاعد وراك.. فى الترابيزة دى! وواخد

بالى من كل حاجة!.. باين على حضرتك ابن ناس..
ومش وش بهدلة!

٢- ( ) آه فعلا !

٣- أنا لما باصادف حد من النوع ده آخده بالمسايسة..
مبدأى فى الحياة.. ان الكلام يحل كل المشاكل..
العنف ده لغة الحيوانات بس.. انما البنى آدم اللى
ربنا كرمه واداله عقل و لسان.. ماداهالهوش زينة ولا
ديكور.. لأ.. الكلام ده أعظم ميزة للبنى آدم! ولا
ايه!

٢- أيوه طبعا

٣- أول ماشفت حضرتك.. وانت قاعد (هامسا) مع
الجدع اياه.. قلت فى سرى يجوز اخوه.. صاحبه.. و
بينهم مشكلة ولا حاجة!

٢- (مقاطعا) أبدا.. دا انا عمرى ماشفته قبل كده!

٣- ياه.. معقولة دى!.. . لكن اسمح لى بقى..
حضرتك متسرع شوية.. ازاى تتكلم مع حد
متعرفوش.. و تحكى له أدق اسرارك!

٢- أبدا.. ده.. هو.. اللى (مرتبكا) مش عارف ازاى
ده حصل!

٣- معلهش خلاص.. انسى الموضوع ده.. الانسان

فى الزمن ده معرض لكل حاجة!
٢- أنا لحد دلوقتى مش قادر أفهم ايه اللى حصل!
٣- اشرب اللمون.. اشرب.. , ياما الواحد بيقابل.. ماتفكرش فى الحكاية دى و تعكر دمك!
٢- مافكرش !.. مافكرش ازاى!
٣- شوف.. أنا أكبر منك.. وياما صادفت بلاوى.. لو حافضل أفكر فيها.. دماغى حاتنفجر.. مفيش حاجة بتنفعنى غير النسيان.. ايوه.. اعمل زيّ.. وانسى!
٢- أنسى!
٣- أيوه.. البنى آدم مننا لو ماقدرش ينسى , عارف يحصل له ايه!
٢- (صمت)
٣- يتجنن او يتهبل! كل ماتلاقى مشكلة مالهاش حل.. انساها و ريح دماغك!
٢- طب.. والمشكلة هاتتحل ازاى!
٣- لا مشكلة ولا حاجة.. دى كلها أوهام! أغلب مشاكلنا أوهام.. وكل ما تتعقد أكتر أنا بانبسط!
٢- تتبسط!!
٣- أيوه.. زى لفة الخيط.. مش ساعات تلاقى

الخيط اتعقد منك ولف على بعضه ومش عارف تسلكه من بعضه.. تقوم تجيب المقص وقاصص الجزء المعقد.. وترميه.. تقوم تلاقى الجزء اللى فاضل.. مترتب وجميل.. وواضح!

٢- فعلا.. عندك حق!

٣- اعذرنى.. اذا كنت جيت قعدت معاك.. كده من غير سابق معرفة!..

٢- لا.. لا.. ولا يهمك

٣- طبعا كان ممكن أقولك اسمى فلان و باشتغل أى حاجة.. فيه ناس بيفتكروا ان هى دى المعرفة.. وانهم خلاص بقم اصحاب ! فى رأى ان كل ده كلام وهم.. وكدب,

٢- كدب!

٣- طبعا.. مادام مابيدلش على أى حاجة يبقى كدب!.. يعنى افترض ان انا دكتور.. أو مهندس.. واسمى أحمد!.. عارف فيه كام واحد بيشترك معايا فى الاسم ده والمهنة دى!.. آلاف.. رغم ان مافيش ولا واحد فيهم زى التانى!.. علشان كده لما قعدت معاك.. مسألتكش عن اسمك!

٢- (صمت)

٣- تو مـا شفت حـضـرتك قـاعـد لوحـدك.. ومعـتـزل الناس.. قلت فى سـرى.. اهه ده انسان بحق وحقيق.. وحسيت بمشكلتك.. وده كان بالنسبة لى كفاية علشان نتعرف على بعض! و نحس بهموم بعض!

٢- بس.. متهيألى.. .

٣- (مقاطعا).. ولما شفت اللى حصل مع الجدع اياه.. مـقـدرتش اسيبك فى الحـالة دي! قلت لنفسى.. لسـه فيـه ناس بنى آدمين كويسين.. ومـا بيطقوش الكذب والنفاق والرياء.. ولا.. ايه!

٢- (خجلا).. أشكرك!

٣- تشكرنى على ايه.. دى حـقـيـقـة واضـحـة زى الشـمـس.. شـايف حـضـرتك الناس اللى قـاعـدين حـوالينا دول.. اللى يشـوفـهم يقـول يا سـلام على الانسجام اللى بينهم! وفى الحقيقة دول مجرد اقنعة مرسومة.. وابتسامات زايفة وكلام مترتب ومحفوظ.. "حضـرتك.. وسـعادتك.. ومـرسـيـه قـوى".. وكلام حلو ومتزوق.. لكن كل واحـد فيهم مـابيشـوفش غيـر نفسـه وبس وغـرقـان فى ملكوتـه.. ولو مـاكانش حد شـايفـهم جـايز يقـومـوا يدوروا ضـرب ونهش فى بعض زى الكلاب المسعورة!

٢- ياه.. !

٣- ايوه.. لو حد فيهم كان عنده شوية صدق كان جه قعد لوحده زيك بالضبط.. شكلك بيقول ان فيه جواك انسان حقيقى!

٢- لا .. دى مبالغة!

٣- وحساس.. وان احنا ممكن نبقى اصحاب بجد!..

٢- (صمت)

٣- ياما ناس بتتكلم عن الصداقة.. وماحدش فيهم فاهم يعنى ايه صديق!

٢- فعلا!

٣- علشان كده تو ماشفتك.. عرفت انك محتاج لصديق!..

٢- بس.. .

٣- (مستمرا) صديق تلاقى عنده صدر واسع تريح عليه راسك وتحكى له كل همومك.. من غير خجل ولا مجاملة او نفاق!

٢- آه.. بس.. يعني

٣- انت قلت لى ساكن فين؟

٢- فى روكسي

٣- لوحدك!

٢- لا .. متجوز!

٣- وسايب المدام لوحدها فى البيت!

٢- لا .. دى معزومة ع العشا

٣- وهاترجع امتى

٢- لما امر عليها علشان اوصلها

٢- معندكش اولاد!

٢- لا .. !

٣- طيب.. ياللا بينا .. نمشى رجلينا شوية

٢- نروح فين!

٣- مش احسن نكمل كلامنا فى البيت

٢- بس لازم افوت على مراتى الاول!..

٣- يا سيدى.. لسه بدرى.. مش هايحصل حاجة لما تتأخر عليها شوية!

٢- بس.. !

٣- بس ايه!؟

٢- لا .. لا .. مفيش حاجة (ينهضان).

الفهرس

بدلاً من المقدمة

(١)

لا شىء فى التفاصيل المدّوخة لحياة خالد جويلى يفسّر قصصه - هذا إذا عرفتها أصلاً، أو عرفها هو !

ولا شىء فى قصصه أو بالأحرى.. نصوصه.. أو منشآته الأدبية (كالتعبير القديم المفعم) إلا ويفسّر حياته، له - ولنا...... ويفسّر زمنه أو عصره بكل ما فيه من: منحنيات - وتحولات ومعارج - ووهن لا يصدّق - وإحالات لا تُخطئُ .. وكل المراوحات (التى أصبحت شرطاً ضرورياً للفن) بين الجنون والعبقرية.. وبين الحُواز والبلسم.

(٢)

وإننى أؤكد بإلحاح على الذُرى التى تجسّدها هذه المنشآت أو النصوص - وأيضاً على "التسقّل المموّه" الذى قد يراه البعض يخالطها.. فيشى بما لديهم هم من استعداء مريض.. مقلق.. عاجز عن الحياة وعن الفن أو عن إدراك الأسطورة المسلم بها من الجميع: الإنسان هو طين من حمأ مسنون يختلط فيه اجتماع مخارج النفايات تلبسته نفخة الروح الخالق ونفحة أنفاسه (*).

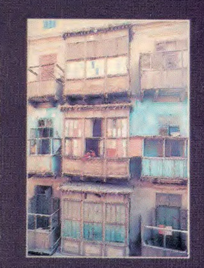
إبراهيم عبد العاطى

(جماعة جاليرى ٦٨).

(*) كان المفروض أن تكون هذه المقدمة فى مكانها المنطقى، فى بداية المجموعة.. لكن كاتبها - كما هو واضح - تطرق إلى "رأى خاص".. رأيت أن وضعه فى البداية ربما يسبّب تأثيراً على رأى القارئ الذى أفضل أن يكونه بنفسه.

خالد جويلى

دار الشرق الاوسط
للطباعة والنشر



كتاب طقوس العزاء/ خالد جويلى هذه قصص واقعية. لكن الواقع فيها مسكون بأشباحه وبدائله. الوقائع هنا صلبة وقاسية فى ظاهرها، لكن "الواقع" يظل رغم ذلك مراوغا. لأنه مثقل بالإمكانات التى لم تكتمل فى وعينا أبدا فى اللحظة الحاسمة، ولأن ثمة آخرين يرونه من زوايا مغايرة، ولأنه مصطبغ بلاوعينا، وأمانينا، وكوابيسنا وصرخاتنا المكتومة. منذ نشر خالد جويلى أولى قصصه فى "جاليرى ٦٨" لم يكف عن كتابة القصص ولم يسع فى الوقت نفسه إلى النشر. وإنخرط فى التصوير الفوتوغرافى والكتابة للمسرح. وتأتى هذه المجموعة أخيراً لتضم حصاد سنوات طويلة يَعِدُ بقراءة ممتعة من صوت أصيل.

شفاه عارية